

الفصل الثالث

فتوح الإسلام

وجاء الإسلام فجمع شتيت العرب ووحّد قواهم وأمدّهم بروح من لدنه ، في حين دب الضعف إلى الإمبراطوريتين : الفارسية والبيزنطية من استمرار حروبها وفداحة ضرائبها والتنازع على عرشيهما ، وضاق بهما نصارى الشرق الأدنى ووجدوا في المسلمين مخرباً فحماً بنوطيئى المعبر لهم في وقعة الجسر ، وأنجدهم بنو النخير ، وقاتل بنو تغلب إلى جانبهم في وقعة البويت ، وصالحهم أساقفة دمشق والقدس والإسكندرية من دون البيزنطيين ، فسقطت ممالك عظيمة الشأن رجة المساحات وافرة الغنى عريقة الفن والأدب والعلم في أيدي المسلمين العرب . ثم في أيدي الذين اعتنقوا الإسلام من مختلف البلدان والقوميات واللغات بعد أن اتحدوا في الإسلام ، وتعلموا العربية لفهم آيات قرآنه الكريم والحديث والفقه ، واتجهوا إلى مكة في صلواتهم وحجيجهم ، فكان هذا التلاقي بين الشرق وبين الغرب بالإسلام ، أوبالجزية على من لم يسلم - هو الأول من نوعه في التاريخ .

١ - الإمبراطورية الفارسية :

غزا العرب بالإسلام أطراف العراق ، وكانت تحت الحكم الفارسي ، فيسر لهم اللخميون فتح الحيرة (٦٣٣) ، وساروا في ركابهم لقتال الفرس ، فهزّمهم الفرس ، في وقعة الجسر (٦٣٤) ، وانتقم العرب لهزيمتهم في القادسية (٦٣٧) ، وبلغوا المدائن (٦٣٧) ، وأسوا على شط العرب مدينة البصرة (٦٣٧) ، وبالقرب من الحيرة مدينة الكوفة (٦٣٨) ، ثم سقطت في أيديهم خوزستان (٦٤٠) والموصل (٦٤١) ونهاوند (٦٤١) ، ومناطق الساحل من بلوخستان (٦٤٣) واصطخر أعظم مدن فارس (٦٤٩) ، فأدالوا الإمبراطورية الفارسية ، وجعلوها جزءاً من الدولة الإسلامية قسموه إلى ولايات تابعة لهم ، ولقبوا الفرس بالموالي ، ورجعوا من المدائن وقد امتلأت أيديهم بالغنائم حتى إن سعداً نقل أبوابها وبنى بها قصره في الكوفة على الطراز الإمبراطوري ، وتشبه به الكثيرون .

٢ - الشرق الأقصى :

وواصل عمال الخلافة الإسلامية فتوحهم ، فاستولوا على : خراسان (٦٧١) ونهر جيحون (٦٧٤) وبلخ (٧٠٥) وبخارى (٧٠٩) والسند ، وأسفل وادي الأندس وأرض الدلتا منه ، وسمرقند وفرغانه وخوارزم (٧١٢) وحيدر آباد وملقان (٧١٣) وجورجيا (٧٢٢ - ٧٣٣) وكاشغر (٧٤٠) وطخارستان (٧٤٩) وطشقند (٧٥١) وغيرها . وقد أنزل الفاتحون - المسلمون في أصقاعها لنشر الإسلام بين أهلها ، وجاءوا منها بزراعة البرتقال وقصب السكر وصناعته وتكريره ، وصناعة الورق التي نشروها في بغداد (٧٩٤) وفي أسبانيا (٩٥٠) وفي صقلية (١١٠٢) .

ولم يقتصر فتح هذه الأمصار على العرب والعاملين لهم فحسب ، أو تكن صلاحاتها بالشرق الأدنى حديثة : فقد كان بين سكانها خليط من السومريين والحثيين والسوريين هاجروا إلى وادي الأندس الحصبب منذ الألف الثاني (ق . م) ، ثم غزاها الإسكندر (٣٢٧ ق . م) وفي ركابه تجار صيدا ، ونزح إليها (في القرنين الأول والثاني للميلاد) جموع من اليونان والسوريين والعراقيين ، كما كان للدين البوذي على مذهبه : مهايانا ، وهانايانا أثره في الشرق الأدنى .

انتشر الأول في معظم آسيا الشمالية ، ونزل دعاته بأرمينيا والقوقاز وتدمر وأنطاكية والإسكندرية ، وناصرت جت وهي إحدى قبائل الهند العرب على الفرس ، وأقام على بن أبي طالب من بعضها حراساً على خزائن المسلمين في البصرة ، واستعان بهم معاوية على البيزنطيين .

وهناك مليبار ، وهي على ساحل بحر العرب في غرب جنوبي الهند . وقد قصدها التجار الكلدان والعرب واليهود والسريريان واليونان والرومان ، وقيل : إن القديس توما قصد الهند ، وبنى الكنائس في ثمانية من بلدانها^(١) . وبلغ مليبار (٥٢ م) ، وتحول إلى جلابور حيث اغتيل ، وله فيها قبر عظيم ينسبه بعضهم إلى ولي من المسلمين يدعى تماماً ، وما زال النصراني والمسلمون يزورونه حتى اليوم ولا يفرقون .

ولما دخل سكان اليمن وحضرموت في الإسلام (٦٣٠) ، وكانوا يتاجرون بمحاصلات السند ومليبار وسيلان وجاوه والصين وغيرها - وصلت الدعوة الإسلامية على أيديهم إليها ،

وأول من استوطن مليبار من العرب : شرف بن مالك ، ومالك بن دينار ، ومالك بن حبيب بعياله ، فدعوا إلى الإسلام ، وبنوا المساجد والمعاهد (٧٠١) (٧) ، واستقرت جماعة من تجار العرب بجزيرة سيلان (حوالي ٧٠٠) ، وأقام عشرة آلاف مسلم من سيراف وعمان والبصرة وبغداد (منذ أواخر القرن التاسع الميلادي) في سيمور وعرفوا بالبياصرة .

غير أن فتح الهند لم يأت المسلمين إلا على يد محمود الغزنوي (٩٩٧ - ١٠٣٠) ؛ فقد غزاها من دولته غزته في شرق أفغانستان سبع عشرة غزوة أحرق في خلالها معابدها ، وأفرغ خزائنها وحمل كنوزها ، وباع أسراها منها رقيقاً ، ووسع رقعة ملكه على حسابها ، فعد أغنى ملك عرفه التاريخ .

ثم استولى الغوريون - وهم قبيلة تركية من أفغانستان - على دلهي (١١٨٦) ، فغزبوا معابدها واستصفوا أموالها ، ونزلوا بشمال الهند ثلاثة قرون ، وظلوا على صلوات بالشرق العربي ، فأقطع الملك غياث الدين طفلق أحد حفدة الخليفة المستنصر عندما فر من بغداد - مدينة سيرى ووهب له قصرًا وأموالاً طائلة ؛ كما أخذ على ابن بطوطة ، وولاه قضاء دلهي ، ثم أسفره إلى الصين .

ويبلغ كاشغر أطراف الصين (٧١٤ - ٧١٥) ، فحطم الأصنام ، وابتنى جامعاً ، وأنزل فيها المسلمين ، وفتح طريق التجارة إليها ، فاستورد العرب منها الورق والخز والحريز ، وأخذوا عنها الإبرة المفضلة والمربعات السحرية التي اشتهر بها ثابت ابن قره ، ثم توسعوا في تجارتهم بفضل جاليتهم ، وقد أريت على أربعة آلاف نسمة ، وأسفر كاشغر إلى ملك الصين لتأمينهم عليها (٧١٦) ، وتعددت السفارات بين الصين وبين دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز وهشام ، ثم تحولت إلى بغداد أيام الخلافة العباسية ، فاستنجد ملك الصين سونسرغ - بالعباسيين على الثائر شي جول (٧٦٢) ، وتتابعت وفود المسلمين إلى الصين فبلغت ٧٦ وقدأ (٧١٦ - ١٢٠٧) ، كما أنقذ بطريك بغداد المبشرين إليها ، وما العمود المرفوع في بيان فو (٧٨١) إلا تذكراً لجهود ٦٧ منهم . وقد زارها التاجر سليمان العراقي ، وسجل رحلته أحد المؤرخين (٨٥١) ، فكانت أقدم وصف عربي لبلاد الصين ، وقبل رحلة ماركو بولو بنحو ٢٥ عاماً .

٣- الإمبراطورية البيزنطية :

وغزا العرب الشام - وكانت تحت حكم البيزنطيين ، ويطلق العرب عليهم الروم - وفاجئوا الغساسنة في يوم فصحهم (٦٣٤) وارتدوا عنها . ثم ضربوا الحصار عليها نصف عام واطأ في أواخره منصور بن سرجون ، وكان قائماً على بيت المال أسقف دمشق على تسليمها ، فاستسلمت (٦٣٥) ، وأصبح عهد خالد لأهلها نموذجاً لما قطعه من عهود للمدن التي فتحها . وانتصر العرب على تيودور شقيق الإمبراطور هرقل الأول - وقد تخلى الأرمن عنه مع أنه منهم ، وكانوا نصف جنده ، ودعا أحد ثائريهم العرب إلى دخول أرمينيا فغزوها (٦٤٠) وفتحوها (٦٥٢) - نصراً مؤزرًا في وقعة اليرموك (٦٣٦) ، وانفض جيلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة بجاعته من حوله ، وانكسر البيزنطيون كسرتهم الفاصلة في أجنادين (٦٣٦) فسلم بطريركهم سوفرونيوس الخليفة عمر القدس (٦٣٨) على ضمان حرية النصارى في عبادتهم وحماية أديرتهم وكنائسهم .

وتابع العرب زحفهم ، فاحتلوا العريش (٦٣٩) ، وفتحوا مصر (٦٤٠ - ٦٤٢) ، وحاصروا الإسكندرية سنة سلمها بعدها المقوقس بطريك الأقباط - وكان اليعاقبة في مصر قد قاسوا الأمرين من اضطهاد بيزنطية - على مثل الشروط التي استسلمت بها القدس ، فاستقرت مصر ولاية تابعة للخلافة في المدينة ودمشق وبغداد ، ثم استقلت بالخلافة مدة ، ثم ضمها العثمانيون إلى استانبول .

وأدرك خلفاء المسلمين بعد فتح الشام وفلسطين ومصر - أن لا سبيل إلى الدفاع عن سواحلهم إلا بعمارة بحرية ، فكلف معاوية اللبانيين بناء أسطول ، وجعل قواده وملاحيه منهم ، وضمه إلى الأسطول المصري ، فهزم بهما الأساطيل البيزنطية وغزا قبرص (٦٤٩) وأرواد (٦٥٠) ثم فتحها (٦٥٢ - ٦٥٥) ، وباع بقايا معادن تمال أرواد الشهير (٦٥٦) وحاول غزو صقلية (٦٥٢) ، ثم صالح قسطنطين الثاني على جزية (٦٥٨) حتى إذا استتب له الأمر رفض دفعها ، فسبر البيزنطيون جماعة من الثوار النصارى عرفوا بالمردة ، فاكتسحوا الثغور وتطرق بعضهم إلى لبنان (٦٦٦) ، واستمرت الحروب بين المسلمين وبين البيزنطيين طوال سنوات فحاصر الأسطول الإسلامي القسطنطينية (٦٧٣ - ٦٧٨) ، ثم ردهم عنها (٧١٧ - ٧١٨) الإمبراطور ليو الأيصوصرى - وهو سورى الأصل من أسرة وضيعة كانت تسكن مرعش ، ويتقن العربية كاليونانية - واستعاد البيزنطيون قبرص (٧٤٦) والأناضول

(٧٧٨) ثم ضرب الأسطول الإسلامي قبرص (٨٠٥) وكريت (٨٠٦) ورودس (٨٠٧) ، وفتح كريت منفيو إسبانيا (٨٢٥) وسقطت عمورية مواطن الأسرة البيزنطية الحاكمة في أيدي المسلمين (٨٣٨) ، ثم استولى البيزنطيون على دمياط في أيام المتوكل (٨٤٧ - ٨٦٠) وكريت (٩٦١) وبعلبك (٩٦٤ - ١٠٨٤) وطرطوس (٩٦٥) وقبرص (٩٦٨) ، وأغاروا على حلب وأنطاكية والرها (٩٧٤) ودمشق وبيروت (٩٧٦) .

• • •

لقد اصطنع العرب في صدر الإسلام نظم البلدان التي تم لهم فتحها لحسن تنظيمها على الرغم من اضمحلال مجتمعاتها ، فأخذوا بالطرق البيزنطية في سوريا وفلسطين ومصر ، وبأساليب الساسانيين في العراق وفارس مبقيين على لغاتها ونقدها وموظفيها ، ما خلا العراق الذي فتح عنوة ، فأطلق عمر يده فيه ، وعدا المناصب ذات الصبغة السياسية والعسكرية . ولما قامت الخلافة الأموية (٦٦٠ - ٧٥٠) تعصبت للعرب عنصراً ولغة وأدباً ، وجعلت قاعدتها دمشق على حدود باديتهم ، واعتمد معاوية في توطيد عرشه على السوريين فكان منهم ميسون إحدى زوجاته ، ومنصور ابن سرجون أمين ماله ، ثم ابنه وحفيده القديس يوحنا الدمشقي ، وابن أنال طيبه ، والأخطل شاعره ، وما لبثت الخلافة الأموية أن أصبحت وريثة الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية أكثر منها حكومة عربية . فنظمت الجيش والأسطول على غرارها ، وأخذت عنها إخلاف الأبناء والأقارب ، وإحاطة الخليفة بمظاهر الأبهة ، وتوفير النعم في جلب المياه وتخطيط الحدائق وتشيد القصور ، وإفناق الأموال على الكساء والطعام والشراب انتجاعاً للملاذ بعد طول جفاف وجهاد وتقشف في عهد الرسول وخلفائه الراشدين .

ثم تعربت الدولة على أيام عبد الملك في لغة الدواوين ، وإنشاء البريد ، وضرب الدينار الإسلامي على غرار الدينار البيزنطي (٦٩٣) وإقامة الوليد بن عبد الملك الجامع الأموي مقام كنيسة القديس يوحنا (٧٠٥) باستقدام المهندسين ومهرة الصناع من مصر والقسطنطينية وفارس وشمال أفريقيا ، فجاء الجامع آية في تصميمه وتنسيقه وتزيينه .

٤ - شمالي أفريقيا :

وحمل العرب على شمالي أفريقيا وواتهم الفرصة فيه ، إذ كان معظم سكانه قد انقسموا في عقيدتهم إلى شرقيين وغربيين ، والطريق إليه ممهداً بوسع العرب الانتقال من طرابلس إلى

طنجة في ظلال الزيتون ، فسقطت في أيديهم بركة (٦٤١) وطرابلس (٦٤٢) ، وبلغ عبد الله بن أبي سرج قرطاجنة (٦٤٧) ودمقلة (٦٥٢) حيث أقام فيها مسجداً ، وعقد مع أهلها معاهدة تجارية ، إلا أن فتح المغرب استغرق ستين سنة لقرنها من صقلية واعتصام سكانها البربر بجبالهم ، ولم يفت ذلك من عضد الخلفاء ، فأنفذ معاوية عقبة بن نافع الفهري عامل بركة ، فانتصر بمعاونة البربر على الروم ، وأسس بالقرب من تونس مدينة القيروان ، وشيد بها مسجد سيدى عقبة (٦٧٠) ، ولكن البربر كادوا له وقتكوا بمعظم جنده (٦٨٣) ، فلما ولي الخلافة عبد الملك بن مروان ولى حسان بن النعمان على المغرب ، ففتح تونس وتغلب على البربر وأجلى الروم عن المغرب (٦٩٣ - ٦٩٨)

ثم ثار البربر بقيادة امرأة تلقب بالكاهنة ، ففضوا على جيش حسان وردوه إلى بركة ، فأمده عبد الملك بجيش مكنه من القضاء على قوة الكاهنة وإخضاع البربر واعتناقهم الإسلام . وظل من المغرب مراكش فتحها موسى بن نصير عامل الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٨) ، وأرسل إليه من أسرى شمالى أفريقيا البالغ عددهم ثلثمائة ألف - خمسهم^(٣) ، ثم وصل بجيوشه إلى المحيط الأطلسي ، ولم يتمتع عليه سوى مدينة سبتة ، وكان يتولاها أمير تابع لدولة القوط بإسبانيا ، ثم توالى على أفريقيا : الأدارسة في مراكش (٧٨٨ - ٩٨٥) والأغالبية في تونس (٨٠١ - ٩٠٩) والمرابطون من البربر في مراكش (١٠٥٦ - ١١٤٧) والموحدون من البربر (١١٣٠ - ١٢٦٩) .

٥ - غربي أفريقيا :

اشتهرت غانة بعداتها وثروتها وريختها ، فتوافد المسلمون من شمالى أفريقيا عليها واستوطنوها تجاراً وموظفين في بلاط سونكى ، ثم شيّدوا مدينة إسلامية على أميال منها . فلما اعتنقت الإسلام قبيلتان من البربر : لمنونة وجودلة ، من جيران غانة في الشمال تحالفتا على سونكى لنشر الدعوة .

وفي مطلع القرن الحادى عشر نزل عند قبائل لمنونة بين مراكش وبين سنغال عبد الله بن يس ، وأسس في جزيرة صغيرة رباطاً ، فعرف أتباعه بالمرابطين ، وقد عاهدوه على الجهاد في سبيل الإسلام ، فغزا بعضهم مراكش ، وأنشأ فيها دولة المرابطين ، واستولى الآخرون على غانة (١٠٧٦) ، فاعتنقت الإسلام قبائل ساراكولا ، وبلغ عدد مساجد المدينة وحدها اثني

(٣) القرى ، فتح الطيب ، ج١ ، ص ١٤٨ .

عشر مسجداً . فلما تم للمرابطين فتح غانة عاد معظمهم إلى صحرائهم ، ثم شغلوا بفتحهم في شمالي أفريقيا والأندلس عنها ، فاستعادها ملوك السونكيين (١٠٨٧) ، ثم ضم سوما نجورو عظيم أباطرة سوسو غانة إلى بلاده (١٢٠٣) بعض الوقت ، فهجرت طوائف المسلمين غانة إلى بلدة والاتا في السودان الغربي ، وأنشأت لها فيها مركزاً تجارياً .

وبين بلدة والاتا في الشمال وبين تمبكتو في الشرق قامت مملكة غينيا ، وقد اعتنق الإسلام ملكها وكثير من رعاياه (١٢٠٤) .

وأسس سونديا تاكيثا خليفة أمير قبائل الماندانج الذي اعتنق الإسلام - إمبراطورية مالى ، وتذكرها المصادر العربية ببلاد التكرور- من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس أضعفتها الغزوات والثورات وتقسام الولاة حتى القرن السابع عشر فقضى عليها حتى بعثت أخيراً .

وتأسست دولة سنغاي على ضفاف النيجر الأوسط (٣٠٠) ، وحوطها رجل لبي إلى ملكية (٦٧٩) ، واعتنق زاكاسي أحد حفدته الإسلام (١٠٠٩) ، وجعل مقره في جوجو ، ثم أخضعها ملك مالى ، واستعادها على كيلون ، وأسس فيها أسرة سوفي ، ووسع سني على بن محمد دان (١٤٦٤) حدودها ، فضمت ولايات غانة القديمة ، وغزا تمبكتو ، وأذن للبرتغال بإنشاء مركز للتجارة في وادان (١٤٦٨) ، وثار على ابنه (١٤٩٢) أحد قواده محمد بن أبي بكر الهادي ، وأسس أسرة ملكية جديدة ، فأسقطه ابنه موسى (١٥٢٨) ، ثم اختلف هو وإخوته العديدون على العرش ، وطمع فيه المراكشيون ، واستولوا عليه (١٥٩١) ، ثم انقسمت سنغاي إلى إمارات عملت على استقلال مراكش .

وقد كانت تمبكتو (١٥٢٦) حاضره سنغاي ومركز الدعوة الإسلامية . فيها مسجدان جامعان : مسجد سيدي يحيى ، ومسجد سنكوري . ومكتبات خاصة تشمل على بعض المخطوطات العربية من أشهرها : تاريخ السودان ، لعبد الرحمن السعدي .

ولم تخضع مملكة برنولسلطان سنغاي ، واتخذ أهلوها كانم - وهي شمال بحيرة تشاد - مقراً للملكهم ، واعتنق أحد سلاطينها الإسلام وتسمى باسم عين محمد بن جبل بن عبد الله . وقد ذكر المقرئزي أنه كان يحكمها عام ١٠٨٦ . وتوفي بمصر في طريقه إلى الحج ، واتسع سلطان حكمها بعد اعتناقهم الإسلام ، ووسعوا رقعة ملكهم حتى اصطدموا هم وجيرانهم ، ثم اختلفوا فيما بينهم ، فقضى على استقلالهم .

٦ - الأندلس :

وفيا كان موسى بن نصير يستأذن الخليفة الوليد بن عبد الملك في فتح الأندلس - وقد أغراه بها يوليان صاحب سبتة - أنفذ مولى له يدعى طارق بن زياد عامل طنجة وهو من البربر في سبعة آلاف مقاتل من جماعته (٧١١) ، فجاز بهم في مراكب قدمها لهم يوليان - مضيق جبل طارق إلى الأندلس ، وفتح قرطاجنة الجديدة وأطراف الجزيرة حتى إذا بلغت الأمداد من شمال أفريقيا حمل على رودريك - معتصب العرش - ويطلق العرب عليه لذريق ، وكسره في وقعة شريش (٧١١) ، وشجعه غرق الملك وغدر أعوانه به وعلى رأسهم الأسقف أبامس ، والحلاف المستحکم بين القوط الغربيين وبين الإسبان الرومانيين على التوغل في البلاد ، فانطلق يستولى على غرناطة وصلمنكة وقرطبة ومالقة (٧١١) فلما فتح نصف الأندلس حسده موسى بن نصير وفتح به (٧١١) ، في عشرة آلاف مقاتل من العرب وأهل الشام وثمانية آلاف من البربر احتل بهم أشيلية (٧١٢) وماردة (١٧٣) ولقي طارقاً في أشيلية فضربه بالسوط لعصيانه واستعاد منه مال الفىء وذخائر الملوك ، ثم صالحه وأقره على مقدمته فانقض على طليطلة عاصمة القوط وفتحها عنوة (٧١٤)

ولما شارفت جيوش المسلمين جبال البرانس خطر لموسى اجتيازها لغزو جنوبي أوروبا وبلغ دمشق من القسطنطينية ، إلا أن الخليفة استدعاه إليه ، فخرج من الأندلس بعد أن استخلف ابنه عبد العزيز على أشيلية ورجع ومولاه طارق إلى الشام بثلاثين ألف أسير^(٤) فيهم ٤٠٠ أمير من القوط ، على رؤوسهم التيجان . . يتبعهم عدد لا يحصى من الغلمان والرقيق حاملين مقادير عظيمة من القنائم^(٥) . وبينهم ثلاثون ألف عنراء من بنات ملوك القوط وأعيانهم^(٦) ، والكثير من الأسلاب والكنوز والذخائر التي انتزعوها من قصور الأندلس وكنائسها وقد وجدوا في طليطلة ذخائر منها سبعون تاجاً من الذهب . . وألف سيف مجوهر ملكى . . ومن الدرر والياقوت أكيال وأوساق^(٧) ودخل الموكب دمشق ، فبهرها (٧١٥) ، ثم أنفذ سليمان خليفة الوليد من اغتال عبد العزيز في أشيلية (٧١٦) ، وجاءه برأسه ، فدفعه إلى أبيه موسى بن

(٤) القرى ، فتح الطيب ، ج١ ، ص ١٤٤ .

(٥) ابن عذارى ، البيان المغرب عن تاريخ المغرب ، ج ٢ ، ص ٢١ .

(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٤٤٨ .

(٧) الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .

نصير ، وسامه من العذاب ألواناً ، حتى شوهد في آخر أيامه مستعظياً في قرية نائية من أعمال الحجاز^(٨) .

وتعاقب على الأندلس :

(أ) الولاة (٧٣٢ - ٧٥٥) قضى العرب ذلك العصر في حروب مع الإسبان وفي خصومات مع البربر ، وفي منازعات بين قبائل العرب نفسها .

(ب) الدولة الأموية : أنشأها عبد الرحمن الملقب بالداخل (٧٥٥ - ٧٨٨) وجعل من قرطبة عاصمة ، وجعل بلاطه في بهاء بلاط لدريق ، واختط مدينة الرصافة ، وياشربنا المسجد الجامع فيها (٧٨٥ - ٧٨٦) وكان الفاتحون قد اجتزوا لعبادتهم نصف كاتدرائية القديس منصور - على الطراز الأموي مرفوعاً على ثلثمائة وخمسين عموداً من المرمر منوراً بتسعة آلاف مصباح ، وأنشأ الطرق والمعابر ، وشجع الزراعة والاقتصاد ، وشيد المدارس فأتاح للإسبان تعلم العربية لغة الدولة والثقف بثقافتها . ولكنه تنكر للعلم ، فقضى على شعيا بن شعيا ، وأحرق الفقهاء في عهده كتب خليل بن عبد الملك .

هشام بن عبد الرحمن (٧٨٨ - ٧٩٦) استسلم إلى فقهاء المالكية المتزمتين ، فأثار الفتن عليه : كفتنة الإسبان بقرطبة ، ووقعة الحفرة في طليطلة ، وهياج الرضى .

الحكم بن هشام الأول (٧٩٦ - ٨٢٢) أسخط الفقهاء عليه لكف أيديهم عن تصريف الأمور ؛ فاندلعت الثورة في قرطبة (٨٠٥) وطليلة (٨١٤) ، فأغرق الرضى بالدماء ، وصلب الكثيرين ، ونفى عشرين ألفاً إلى فاس وخمسة عشر ألفاً إلى الإسكندرية ، فذهبوا إلى كريت ، واستعادوها من البيزنطيين (٨٢٥) .

عبد الرحمن الثاني (٨٢٢ - ٨٥٢) أول من بدل حياة البلاط من خشونة إلى ترف ، وقع ثورة المسيحيين واليهود في طليطلة ، ثم غلبه على أمره : امرأة وخصي وفقية ومغن ؛ فنفى يحيى بن الغزال الذى أسفره إلى ملك النورمان والدانرك (٨٤٥) لهجائه مغنيه زربابا ، وأمر بصلب شيخ من الباطنية إكراماً لفقيره يحيى بن يحيى . وقتل : الكاهن برفكتوس (٨٥٠) والراهب إسحق . والفتاة لورا ، والراهبة ماري (٨٥١) .

محمد بن عبد الرحمن (٨٥٢ - ٨٨٦) استعان بالفقهاء على إرهاب اللاتين من رعاياه النصرى ، فأعدم أسقف قرطبة (٨٥٩) ، وبشيوخ القبائل على الخارجين عليه من

(٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٢٦ .

المستعربين ، كبنى قسى ، وعبد الرحمن بن مروان الجلقى ، وعمر بن حفصون ، فكان شيوخ القبائل لأنفسهم من نواحيهم ، ثم انقلبوا على ابنه الخليفة المنذر (٨٨٦ - ٨٨٨) فسمه أخوه عبد الله وحل محله .

عبد الله (٨٨٨ - ٩١٢) نازعه شيوخ القبائل السلطان ، وارتد ابن حفصون إلى النصرانية (٨٩٩) .

عبد الرحمن الناصر (٩١٢ - ٩٦١) أول من تلقب بلقب أمير المؤمنين ، (٩٢٩) وقد أخضع العرب لسلطانه ، وقضى على عمر بن حفصون ، وأرهب ممالك النصارى ، وأحاط نفسه بجرس من الصقالبة ، واتخذ حسداى بن شبروط طبيباً ومشرفاً على بيت المال ، وتبادل هو وأوربا السفارات ، وكلف بالعمارة ، فابتنى مدينة الزهراء (٩٣٦ - ٩٦١) ، فاشتملت على مساجد وحمامات وقصر قائم على ٤٣٠٠ عمود بعضها من خرائب قرطاجنة ، فيه ٤٠٠ غرفة ومقصورة ، وفى وسط قاعته جوهرة أهداها إليه الإمبراطور ليو البيزنطى^(٩) ، كما عنى بالزراعة والصناعة والتجارة ، فقارب دخله ٦,٢٤٥,٠٠٠ دينار ما عدا أخماس الغنائم^(١٠) ، وشجع الآداب والعلوم والفنون ، وأجزل للمترجمين من اليونانية واللاتينية ، وأسس جامعةً فى المسجد الجامع فبلغت قرطبة الذروة^(١١) ، وألفت مع بغداد والقسطنطينية المراكز الثقافية العالمية يوم ذلك .

الحكم الثانى (٩٦١ - ٩٧٦) ولى حسداى بن شبروط الوزارة والمنصور قيادة الجيوش ، وحمل ممالك النصارى المجاورة على طلب الصلح (٩٦٢ - ٩٧٠) ، وقضى على الفاطميين فى مراكش (٩٧٢) ، وأتم بناء مدينة الزهراء ، ووسع نطاق المسجد الجامع وزينه بالفسيفساء التى أهداها إليه إمبراطور القسطنطينية ، وأنفذ الرسل إلى الشرق الأدنى يستسخون له الكتب ، فأربت مكتبة قرطبة على ٤٠٠ ألف مجلد ، وأرسل إلى أبى الفرج الأصبهاني أنبى دينار لقاء نسخة من كتاب الأغاني قبل ظهوره فى العراق ؛ كما فعل مع القاضى أبى بكر الأبهري فى شرحه مختصر ابن الحكم ؛ وقصد جامعة قرطبة فى عهده الطلاب من أوربا وأفريقيا وآسيا ، وبلغ عدد تلاميذ قرطبة بين خمسة آلاف وستة آلاف^(١٢) .

(٩) ابن عذارى ، البيان المغرب عن تاريخ المغرب ، ج٢ ، ص ٢٤٧ .

(١٠) المقرئ ، نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٣٦ .

(١١)

Encycl. de l'Islam, T1, p. 306

(١٢) ابن بشكوال ، الصلة ، ج١ ، ص ٣٥٤ .

هشام بن الحكم (٩٧٦ - ١٠٠٩) خلف أباه على العرش ، وعمره اثنا عشرة سنة ، فتولت الحكم باسمه أمه يساعدها فيه المنصور (٩٧٧ - ١٠٠٢) بسمارك القرن العاشر^(١٣) فأحل البربر محل الصقالبة المستعربين ، وأخضع بهم برشلونة (٩٨٥) ، وحجر على هشام ، وشيد مدينة الزاهرة ، وتلقب بلقب الخلافة (٩٩٢) ، واستولى على ليون وذبح أهلها وعلى شنت ياقب (٩٩٧) ، ودمر ضريح قديسها ، وأرغم أسراه على حمل أبواب كنيسها وأجراسها في موكب نصره بقرطبة ، ثم جعل الأندلسيون تلك الأجراس مشاعل بنيرون بها منازلهم . وشغف المنصور بالعلم ، ففتح صاعد البغدادي خمسة آلاف دينار على كتابه النصوص^(١٤) ، وتقرب إلى العلماء بإحراق مكتبة الحكم الثاني ، فلم يفر له^(١٥) ، وتوفى (١٠٠٢) وهو عائد من حملته الثانية والحمسين التي غزا فيها قشتالة ، ودمر أديرتها وخرب حقولها .

عبد الملك المظفر (١٠٠٢ - ١٠٠٨) خلف أباه المنصور ، وأتزل بالمسيحين هزأ ثم اتمر به أخوه عبد الرحمن فات مسموماً ، ولما ولاه هشام عهده قتله الأمويون ، وخلصوا هشاماً ، وبايعوا ابن عمه محمداً المهدي ، فهدم المدينة الزاهرة^(١٦) وزرع الأزهار في جماجم أعدائه ، ثم اغتيل (١٠١٠) .

(ج) ملوك الطوائف (١٠١٣ - ١٠٨٦) ، وأعقب الثورة على أولاد المنصور الفتنة الكبرى ، فقضت على الخلافة الأموية ، واقتسم الأندلس البربر والمولدون والعرب :
فولى غرناطة بنو زيري (١٠١٢ - ١٠٩٠) ، ومالقة بنو حمود (١٠١٦ - ١٠٥٧) ،
وسرقطة بنو هود (١٠١٩ - ١٠٣٠) ، وبلنسية بنو عامر (١٠٢١ - ١٠٦٥) ،
وبطليموس بنو الأقطس (١٠٢٢ - ١٠٩٢) ، وأشبيلية بنو عباد (١٠٢٣ - ١٠٩١) ،
وقرطبة بنو جهور (١٠٣١ - ١٠٧٠) ، وطلليطة بنو ذي تون (١٠٣٥ - ١٠٨٥) ، والمرية بنو صمادح (١٠٤٤ - ١٠٩١) إلخ وفي ذلك يقول ابن خلدون :

« إن دولة بني أمية لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها ، واقتسموا خطتها ، وتنافسوا فيما بينهم ؛ واستظهروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين . . . اقتداء

(١٣) دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد ٣ ، ص ٤٣ .

(١٤) الضى - بغية المنتمس ، ص ٢٥٥ .

(١٥) القرى ، فتح الطيب ، ج ١ ، ص ١٣٦ .

(١٦) التويرى ، ج ١ ، ص ٧٤ .

بالدولة في آخر أمرها (١٧) ، ولكنهم عجزوا عن صد هجمات الإسبان ، فاستعادوا صملنكة (١٠٥٥) ، وهزم الفونسو السادس ملك قشتالة (١٠٧٢ - ١١٠٩) المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية (١٠٨٣) ، فدخل في طاعته وزوجه إحدى بناته ، واستولى الفونسو على طليطلة (١٠٨٥) ، وولى ملوك الطوائف بعضهم على بعض .

(د) دولة المرابطون (١٠٨٧ - ١١٤٥) ورأى الفقهاء الاستعانة بالمرابطين على الإسبان ، فتوجه وفد من القضاة إلى مراکش ، فاستجاب لهم يوسف بن تاشفين ، وعبر إلى الأندلس ، ومكن للمعتمد بانتصاره على الفونسو السادس في وقعة الزلاقة (١٠٨٦) ، ثم أراد الأندلس لنفسه ، فخلع ملوك الطوائف ، ونفى المعتمد ووزيره إلى مراکش ؛ وضرب النقود باسمه ، وهدم كنيسة المستعربين في غرناطة (١٠٩٩) ، وخلفه ابنه علي (١١٠٦ - ١١٤٣) فأجلى النصارى إلى مراکش (١١١٨) ، ثم أعمل السيف في رقاب مستعربي غرناطة (١١٢٦) ، ولكنه عجز هو ومن خلفه عن صد هجمات ملوك إسبانيا والبرتغال : فتتوج الفونسو السابع ملك قشتالة إمبراطوراً (١١٣٥) ، وبلغ في توغله قرطبة (١١٤٨) ، وانتزع الفونسو الأول ملك البرتغال لشبونة من حكامها (١١٤٧) ، فأصاب المرابطين ضعف ملوك الطوائف وفسادهم وكسادهم .

(هـ) دولة الموحدين (١١٤٥ - ١٢٢٥) ولما قضى الموحدون على المرابطين في الجزائر (١١٥٢) وفي تونس (١١٥٨) وفي طرابلس (١١٦٠) استنجدهم ابن قسي المرتولى على الإسبان ، فهزموا الفونسو الثامن في وقعة الأرك (١١٩٥) ، وانتصر عليهم في وقعة العقاب (١٢١٢) ، ثم عقد صلحاً مع المسلمين ؛ ليحتمي نفسه من غدر المسيحيين . وجمع فرديناند الثالث (١٢١٧ - ١٢٥٢) بين قشتالة (١٢١٧) وبين ليون (١٢٣٠) ، واستعاد قرطبة وحول مسجدتها الجامع إلى كنيسة (١٢٣٦) وبلنسية (١٢٣٨) ومرسيه (١٢٣٩) وأشبيلية (١٢٤٨) ، فأتخذها عاصمة وقصرها مسكناً ، ثم قادش (١٢٥٠) ، ووقف عند غرناطة .

(و) مملكة غرناطة (١٢٣٢ - ١٤٩٢) وصمد بنو الأحمر للإسبان قرنين ونصف القرن من الزمن ، فأقام محمد الأول (١٢٤٨ - ١٢٧٢) قصبه الحمراء ، وبني برج الطليعة ، ووطد خلفه ابنه محمد الثاني (١٢٧٢ - ١٣٠٢) سلطانه باستنجاهه ببني مرين ، وبني محمد الثالث (١٣٠٢ - ١٣٠٩) قصرًا بالحمراء والمسجد الجامع بالقصر ، ووقف عليه الحمام بإزائه ، وأنشأ يوسف أبو الحجاج (١٣٣٤ - ١٣٥٤) جامعة غرناطة ، وابتنى ابنه محمد

الخامس (١٣٥٤ - ١٣٩١) القصور السلطانية بالحماماء ، وتضم ثلاث مجموعات وهي من أجمل وأنفس ما خلفه العرب من بدائع الآثار .

وخلف محمد الخامس ملوكٌ ضعاف قامت بينهم الفتن في حين توحدت فرنسا تحت حكم لويس الحادى عشر ، وانجلترا على عهد هنرى السابع ، واعترفت ألمانيا بإمبراطور واحد ، وتزوج الملك فرديناند الخامس إيزابيلا (١٤٦٩) ، فجمعا بين ملكيها ، واسترجعا غرناطة (١٤٩٢) ، ووقعا معاهدة ذات خمس وخمسين مادة تؤمن المسلمين على النفس والأهل والمال وإقامة شريعتهم على ما كانت (١٨) فما ارتعوا بالمعاهدة غير سبع سنوات ضيق الأساقفة عليهم بعدها - وقد أحفظهم تفريق الفاتحين نصف أموال القتلى والفارين على المسلمين ، ومصادرة أملاك المعابد وكنوزها ، وتنصيب الأساقفة وعزلهم ، وإلزامهم الصمت على نقد الفقهاء ، وتغريب المهزومين ، وغير ذلك - فرجع ملوك إسبانيا إلى محكمة التفتيش التي عرفوها (١٢٣٢) نقلاً عن ألمانيا (١١٩٤) وفرنسا (١٢٢٦) وإيطاليا (١٢٢٨) لمعاينة الضالين من النصرارى وسلامة ممالكهم ، فاستباحت المسلمين تعذيباً وإحراق كتب (وتشريداً) ما عدا من فتن عن دينه أو خفى أمره عليها . ومن متخلى العرب في الأندلس من يعرفون اليوم باسم المركز الداما ، والمدور ، والكونت دو كافيا إلخ . . . وقد بلغ بعضهم الوزارة ورئاستها (١٩) فجلوا في فترات (١٤٩٢ - ١٤٩٦ - ١٥١٤ - ١٥٨١ - ١٦٠٩) ، وانضم إلى بعضهم المهاجرون من البرتغال وقد تشتت شملهم ، فمنهم : من قصد إيطاليا ، ومنهم من نزل بجنوى فرنسا ، ومنهم من حمل إلى شمالي أفريقيا ، فترلوا بتطوان وأرباضها ، ومنها أغاروا على البرتغاليين براً وبحراً في سبتة والقصر الصغير وطنجة ، وأسروا منهم ثلاثة آلاف أسير ونيقاً ، وأقام غيرهم بتونس في حين : شارع الأندلس وحومة الأندلس ؛ وكانوا يعلقون مفاتيح منازلهم في قرطبة وأشبيلية وغرناطة على جدران بيوتهم في شمالي أفريقيا ، ويشاركون أهلها في تطوير العلم والصناعة والتجارة فيها ، ثم لرح فريق منهم إلى الإسكندرية .

٧ - البرتغال :

والبرتغال - وكانت تعرف قديماً بلوشيتانيا ويلتقى على أرضها الأفريقيون كالليبيين والبربر بالأريين والسلت الأوربيين - في شمال شرقى الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا) ، وقد أصابها

(١٨) أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر ، ص ٤٩ .

(١٩) حاضر العالم الإسلامى لسودارد ، ترجمة الأستاذ نويض وتعليق الأمير شكيب أرسلان ، ج ٢ ، ص ٢ .

ما أصاب الجزيرة ، فاستولى عليها الفينيقيون والقرطاجنيون واليونان والرومان ، وفي عهد أغسطس أحد أباطرة هؤلاء شيدت مدينة ماردة على شرفه وجعلها عاصمة البلاد .

وبعد أن فتح موسى بن نصير أشبيلية مشى على ماردة وأحل شلب محلها قاعدة الغرب الأندلسي . وفي عهد الولاة نزل بنو وزير من اليمن بشلب وباجة ، وأقطع غيرهم من العرب والبربر يابرة ولشبونة وشتمرين ، ثم أعيد توزيعها على السوريين والأردنيين والمصريين عندما انتقلوا إليها .

ولما قامت الدولة الأموية أحمدت ثورة باجة ، وكانت تدعو للعباسيين ، وردت قرصان الشمال عن لشبونة والقصر ، وقضت على الأمراء والمولدين ، وكانوا من الإسبان القوط قد اعتنقوا الإسلام ، وطمعوا في حكم إماراتهم ، ثم لجنتها المنصور في حملته على غاليسيا وسانتياغو ، واستعاد المرابطون من ألفونسو السادس ملك ليون وقشتالة بعد هزيمته في وقعة الزلاقة (١٠٨٦) شتمرين ولشبونة وشتمرة .

وتزوج هنرى البورغندي تيريزا بنت ألفونسو السادس ، فأقامه كونتاً على البرتغال (١٠٩٣ - ١١١٢) وخلفه - بعد انشقاق بين النبلاء - ابنه ألفونسو الأول (١١١٢ - ١١٨٥) ، فهزم المرابطين في وقعة الأرك (١١٣٩) ، وأفاد من ثورة ابن قسى عليهم ، ومرور الصليبيين به لاسترجاع شتمرين ثم لشبونة (١١٤٧) استرجاع جيرار سان بور (الذى لا يهرب الموت) أحد قواده يابرة وباجة من للموحدين فيما بعد . وخلفه ابنه شانجه الأول (١١٨٥ - ١٢١١) ، فحمل بالصليبيين الألمان والإنجليز وأهل الفلاندر على شلب ، فاستسلمت لهم عطشاً ، وخرج قائدها عيسى بن أبى حافظ بن أعلى ومن بقى معه منها مؤمنين على أرواحهم (١١٨٩) ، ثم استعادها المنصور بعد استعادته القصر وبالملا وألمادا . وعاون ألفونسو الثانى (١٢١١ - ١٢٢٣) الإسبان على دحر الموحدين (١٢١٢) ، واستجاب لرغبة أسقف لشبونة فى استرجاع القصر بمؤازرة إحدى الحملات الصليبية بعد معركة حامية (١٢١٧) ، وقنع شانجه الثالث (١٢٢٣ - ١٢٤٥) بما ورثه . ولم يقنع ألفونسو الثالث (١٢٤٥ - ١٢٧٩) ، فاسترجع من ابن محفوظ الغرب كله وضمه إلى البرتغال (١٢٤٩) ، وأنشأ الملك دينيس (١٢٧٩ - ١٣٢٥) جامعة لشبونة (١٢٩٠) ، وقرب علماء العرب وأفاد من علومهم .

ثم ارتقى عميد منظمة دافيس العسكرية عرش البرتغال باسم جان الأول (١٣٨٥) ، وفى عهد أسرته فتح البرتغاليون سبتة (١٤١٥) طمعاً فى إنشاء إمبراطورية فيما وراء البحار وتسيير

السفن حول شاطئ أفريقيا الغربي وقلك حصار المسلمين عن الحيشة . ومن سبته انطلقوا إلى القصر الصغير وطنجة ، وانبثوا في ثغور الشاطئ الغربي ، وأقاموا عليه القلاع ، وبلغوا منه جزر المدير (١٤١٨) وأسور (١٤٢٧) وسنغاي على ضفاف النيجر (١٤٦٨) ورأس الرجاء الصالح (١٤٨٦) ثم الهند .

٨ - فرنسا :

لئن رد الخليفة الوليد موسى بن نصير عن جبال البرانس - لقد أذن خلفاؤه للحر بن عبد الرحمن باختراقها ؛ فاجتاح جنوبي فرنسا ؛ ثم عيد الرحمن الغافقي - وهو من أشهر ولاية الأندلس - في فتحها جميعاً ، فعبر بجيوشه جبال البرانس ، واستولى السمع بن مالك على ناربون ، وجعل منها قاعدة ، ولم يحل مصرعه أمام تولوز (٧٢١) بين العرب وبين اكتساحهم : كاراكسون ، ونيم ، وليون ، وماكون ، وأوتن ، وغاليسيا ، وأعلى الرون واللوار (٢٠) : وبلغوا أتون وأفينيون ، وفتحوا بورذو عتوة (٢١) وأشعلوا النار في معابدها وفي الكنيسة القائمة خارج أسوار بوتيه ، ثم زحفوا شمالاً حتى جاوزوا مدينة تور . فلما استفحل أمرهم صادر شارل مارتل أمراة الكنائس ، وألب عليهم جيشاً خليطاً من الفرنسيين والألمان والبورغنديين ، فدحروهم بعد معركة حامية دامت سبعة أيام في سهل بين تور وبوتيه ، وقد عرفت بوقعة بوتيه (٧٣٢) وقتل الغافقي ، وانسحبت جيوشه في جنح الظلام .

ويقول ليون وقد اشتهر بالتعصب على الفرنجة في كتابه حضارة العرب : إن مارتل لم يكن بحيث وضعه المؤرخون ، فهو لم يقو إلا على دحر العرب في وقعة بوتيه ، ولكنه عجز عن إجلائهم عما كانوا قد احتلوا من المدن ، أو إيقاف زحفهم على : جرينوبل ، ونيس ، وفرنجوى ، ومرسيليا ؛ فأقطعهم حاكمها ولاية بروفنس (٧٣٧ - ٧٥٩) وبلغوهم أرل وسان تروبيز (٨٨٩) وانبثأهم في القالة والسوس ، وتمر (٩٣٥) ونزولهم بجبال البيرنه والألب في جنوبي فرنسا خلال قرنين متوالين .

ويقول دي فيشر (٢٢) : إن جماعة من العرب أغارت على فراكسيتوم (٨٨٨) في

Le Bon, La Civil des Arabes, p. 320.

(٢٠)

Sedillot, Hist. des Arabes v. 2, p. 203.

(٢١)

B. de Fischer, Contribution à la connaissance des relations Suisses-Egyptiennes, Lisbonne, 1956.

(٢٢)

خليج سان ترويز واحتلتها ثم انطلقت منها إلى بورغونيا وأرل ، ونيس ؛ وعبرت الألب ناحية إيطاليا (٩٠٦) ، وغزت دير نوفاليزه ومدينة أكوى ، ثم تصدّت للحجاج الإنجليز المتوافدين عبر هذه المناطق على رومة (٩٢١) - وأنفذ أبو القاسم محمد القائد الفاطمي أسطولاً (٩٣٤) إلى ساحل فرنسا الجنوبي ، فزاه ، ثم احتل جنوى مدة - وبلغت إقليم خور ومنطقة الجريزون (٩٣٦) واحتلت ممر سان برنار الكبير ، وهدمت دير سان موريتز (٩٤٠) ، وأغارت على نيو شاتل وأفانش وسانت غال (على الحدود الألمانية السويسرية) وسارجاس وتوجنبورج وابتسل ؛ مما حمل هونج دى بروفانس على أن يطلب إلى المغيرين حياجة ممرات الألب الرئيسية له ، ودفع برانجه منافسه على عرش إيطاليا عنها (٩٤٢) .

وهكذا تمكنت تلك الجماعات من العرب من بعض ممرات جبال الألب ، فلما أسرت سان مايول وهو راهب دير كولوني (٩٧٣) ، وطالبت بفدية كبيرة لفك أسره - أغضبت النصارى ، فتحالفوا أمراء وشعوباً على العرب لإجلائهم عن الألب ، فطردهم جيوم دى بروفانس من قاعدتهم فى فراكستيم (٩٧٥) ، ففرقوا فى مناطق جبال الألب ولاسيما فى ممر سان برنار الكبير ثم عفى عليهم .

٩ - إيطاليا وصقلية :

والصلات بين الشرق الأدنى وشمال أفريقيا والجزر الشرقية وبنين إيطاليا وصقلية وكورسيكا صلات قديمة وثيقة متنوعة^(٢٣) لم تكن خافية على المسلمين فبدعوا بجزر الباليار ، فر بها عبد الله بن موسى بن نصير (٧٠٧ - ٧٠٨) ابتغاء فتحها ، وكر عليها المسلمون (٧٩٧ - ٧٩٨) ، فردهم عنها شارلمان (٧٩٩) ، ثم مكهم منها النورمان (النورمانديون - أهل الشمال) ، فاستولى عليها عصام الخولاني (٩٠٣) .

ولما استقل الأغالبة عن بغداد بتونس (٨٠١) ، وأحلوا الإسلام والعربية محل النصرانية واللاتينية غزوا شاطئ إيطاليا وفرنسا ، واحتلوا كورسيكا (٨٠٩) وسردينيا (٨١٠) ، ثم استولى منفيو الأندلس على كريت (٨٢٥) ، فاستؤنف التراع القديم بين قرطاجنة وبين اليونان ومن بعدهم الرومان على صقلية (٨٢٧) ، فما استعان أو فياس أحد ثوار سرقوسة بالأغالبة على الحاكم البيزنطى حتى استنفر زيادة الله الأعلى الجند لجهاد صقلية ، وجردها أسطولاً من سبعين سفينة فيها عشرة آلاف مقاتل وسبعائة فارس ، عقد لواءه للقاضى الوزير أسد بن

(٢٣) الفصل الأول . مهد الحضارة - قرطاجنة - والفصل الثانى . العرب قبل الإسلام .

الفرات ، فتوفي بعد جهاد ١٣ شهراً ، ودفن تحت أسوار سرقوسة .
 وخلفه محمد بن أبي الجوارى ، ثم فتح زهير بن عوف بالرمو (٨٣١) وجعلها نقطة
 ارتكاز لفتوح أخرى وللتدخل في الخلافات الناشئة بين الدويلات الإيطالية . وصدق
 حده ، فاستنجدت نابولي المسلمين (٨٣٧) ، فأنجدها ، وغزوا أنكونا (٨٣٩) ،
 واستولوا على تورنتو (٨٤٠) وميسينا (٨٤١) وبارى - حصن البيزنطيين في الجنوب وجعلوها
 قاعدتهم الرئيسية - ولما استقل قوادها عن أمير بالرمو استعاضها الإيطاليون (٨٤١ - ٨٧١) ،
 وانقضوا على سالرنو بدعوة من دوق بنفتو (٨٤٢) ، وارتدوا عنها بعد تخريبها مساكن
 ومزارع ، ثم ظهوروا في جوار البندقية ، وأشرفوا على رومة ، ونزلت فيالقهم بأوستيا مرفئها
 البحري (٨٤٦) ، وعندما عجزوا عن اختراق أسوارها استولوا على مافي خارجها من كنوز
 كاتدرائيات القديس بطرس والقديسان والقديس بولس ، واستباحوا ضواحيها وعبثوا بقبور
 الباباوات . ولم تزل منهم الهزيمة البحرية التي أترها بهم دوق نابولي في وقعة ليكوزا (٨٤٦) ،
 فكروا بسفهم على أوستيا حيث قهرهم أسطول إيطالي بفضل الحلف الذي عقده البابا ليون
 الرابع (٨٤٩) . وفي حجرة حريق المدينة بالقديسان صورة لرفائل تمثل تلك الوقعة
 البحرية - وجاء من ألمانيا الإمبراطور لويس الثاني وأرجعهم إلى بارى وتورنتو (٨٦٦)
 ولكنهم عادوا - وقد احتل أصحابهم قصر بانه (٨٥٩) - ومالطة (٨٧٠) إلى تهديد رومة
 (٨٧٢) ، واضطروا البابا يوحنا الثامن إلى تأدية نحو ٢٥ ألف رطل من الفضة جزية مدة
 سنتين^(٢٤) ، وأغاروا على كامبانيا (٨٧٦) ، وفتحوا سرقوسة (٨٧٨) ، واستعاد باسيل
 الأول الإمبراطور البيزنطي تورنتو منهم (٨٨٠) فلم يعثوا بل استأنفوا غاراتهم فأحرقوا دير
 مونتى كاسينو ودمروه عن آخره (٨٨٤) ، وبلغوا رغوصة في يوغسلافيا فحاصروا مرفأها مدة
 ثم ارتدوا عنه ، ونشرت قاعدتهم الحربية التي أنشئوها في جوار جليانو (٨٨٢ - ٩١٥)
 الرعب في كامبانيا وجنوب لا ثيوم حتى اجتمعت عليهم قوات البابا وإمبراطورى ألمانيا
 وبيزنطية ومدن إيطاليا الوسطى والجنوبية ، فهزمتهم على نهر كرجليانو (٩١٦) ، وأجلتهم عن
 إيطاليا إلى صقلية ؛ وما زالت أبراجهم التي كانت تدبغ أبناء وصول أساطيلهم من صقلية
 وشمالى أفريقيا قائمة على شاطئى نابولى الجنوى .
 وتبع أمراء صقلية أغلبية القيروان حتى إذا ظهرت عليهم الخلافة الفاطمية في شمالى
 أفريقيا - استقل أمراء صقلية عنها ، وخطبوا للخليفة العباسى المقتدر (٩١٢ - ٩١٦) ، ثم

استعادها الفاطميون (٩١٧) ، واتخذوها قاعدة بحرية لحملاتهم على البندقية ، وعلى جنوى التى استباحوها (٩٣٥) (٢٥) ، واستعمل المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين حسن بن على الكلى على صقلية ، فأسس فيها الدولة الكلية .

وقد جلب المسلمون إلى صقلية : البرتقال والتوت والزيتون وقصب السكر والنخيل والقطن والكتان ؛ ووسعوا رقعة الأرض المزروعة فيها ، وما زال كثير من ينابيعها يحمل أسماء عربية حتى اليوم ، وجعلوا من بالرمو ثغراً تجارياً خطيراً بين أوروبا وبين شمالى أفريقيا .

ولما سقطت الدولة الكلية (١٠٤٠) انقسم المسلمون على أنفسهم : فحكم بالرمو مجلس من الأعيان ، وسائر الجزيرة أمراء محليون انصرفوا إلى شهواتهم ، وخلف التدخل البيزنطى أثره فيهم ، فهدد للفتح النورمانى ؛ إذ كان حجاج القدس وجلهم من النورمان عائدتين عن طريق إيطاليا ، فاستعان بهم كونت دافينو على المسلمين (١٠٥٧) ، وأطمع النصر الكونت روجه بن تانكرد دى هوتفيل فحمل على مسينا وفتحها (١٠٦٠) ، ثم سقطت بالرمو (١٠٧١) وسرقوسة (١٠٨٥) ، ومالطة (١٠٩٠) ، والصقليتان ما خلا بضعة مراكز (١٠٩١) ، فهاجرت الطبقة المثقفة إلى شمالى أفريقيا ومصر ، وخضع غيرها للنورمان .

ولم يقف الأمر عند ضياع صقلية : فقد أدى انقسام المسلمين فى شمالى أفريقيا إلى الاستعانة بروجع صاحب صقلية ومخلفائه ، فسطوا حمايتهم على الكثير من شمالى أفريقيا حتى عام (١٥١٠) ، ثم خلفهم الإسبان والأتراك إلى سنة ١٩١١ ، ثم حل الفرنسيون محلهم فى الجزائر (١٨٣٠) وفى تونس (١٨٨١) وفى مراكش (١٩٠١) والإيطاليون فى طرابلس الغرب (١٩١١ - ١٩١٢) ثم جلوا عنها .

١٠- الحملات الصليبية :

وللحملات الصليبية دوافع متعددة لأغراض متنوعة : فقد أصبحت القدس منذ أن شيدت فيها هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين كنيسة القيامة (القرن الرابع) مزاراً للمسيحيين ، ثم جمعت بينهم وبين المسلمين بعد استيلائهم عليها (٦٣٨) فأبى الخليفة عمر أن يصل فى تلك الكنيسة ، وعهده لأهلها مشهور . ثم تبادل العباسيون والفرنسيون السفارات والهدايا (٧٩٧ - ٨٠٦) ، ووافق هرون الرشيد على جعل حماية القدس فى يد شارلمان (٨٠٧) ، فأرسل أحد بطاركتها مفاتيحها إليه (٨٠٧) حتى ألغى الحاكم بأمر الله الفاطمى تلك الحماية ،

ودمر كنيسة القيامة (١٠٠٩) ، فهب المسلمون يعاونون على إعادة بنائها ، ويأذنون لتجار مالى بتشيد مستوصف لمرضى الحجاج والفقراء داخل أسوار القدس (١٠٤٨) ، وقد أسس مستوصفاً فيها على غرازه فرسانُ القديس يوحنا (١٠٧٠) .

ولما عمدت دولة السلاجقة السنية إلى توسيع رقعتها على حساب الدولتين : الفاطمية الشيعية والبيزنطية المسيحية وبلغت القدس (١٠٧٠) آذت الحجاج واضطرتهم إلى الحج في قوافل ، ثم انتصرت على بيزنطية في وقعة منكرت (١٠٧١) ، وهددت القسطنطينية ، فاستنجد إمبراطورها الكيسوس الأول كومنينوس (١٠٨١ - ١١١٨) البابا أربانيوس الثاني (١٠٨٨ - ١٠٩٩) ، فخطر له توحيد الكنيسة بعد انشقاقها (١٠٥٤) ، وطمع نبلاء أوربا في مغنم الفتح ، وقد استولى النورمان على صقلية (١٠٦٠ - ١٠٩٠) وألفونسو السادس على طليطلة (١٠٨٥) وطلق يسترجع إسبانيا من المسلمين - وجنوى وبيزا في التجارة ، بعد استيلائها على ثغر المهديّة (١٠٨٧) والمجرمون في التكفير عن ذنوبهم استجابة للحركة الكلوونية الداعية إلى الحج للتوبة . وفي ذلك الجو عقد مجمع كليرمون (١٠٩٥) برئاسة أربانيوس الثاني وهوكلوى فرنسى ، ودعا فيه بطرس الناسك أحد الحجاج الذين لقوا الأداة على يد السلاجقة إلى الحرب الصليبية ، فأقره المجمع عليها وألقت في سبيلها ثمانى حملات :

الحملة الأولى (١٠٩٦ - ١٠٩٩) وقد انقسمت إلى فصيلتين ، وانطلقت طليعتها قبل موعدها حتى إذا بلغت القسطنطينية ولم يعوضها الإمبراطور الكيسوس عما فقدته - نهبت كنائسها وقصورها وبيوتها ، فأمدتها بالسفن والمؤن تخلصاً منها ، فعبرت إلى نيقية حيث خرجت عليها قوة من السلاجقة أبادتها على فكرة أبيها .

وقاد الأخرى النبلاء : جودوفروادى بويون ، وأخوه بودوين ، وبوهمند ، وابن أخيه ريمون تانكرد وليس بينهم ملوك فرنسا وإنجلترا وألمانيا ؛ إذ كانوا مطرودين من حظيرة الدين فبلغت القسطنطينية (١٠٩٧) وعن لبوهمند الاستيلاء عليها لولا جودوفروا ، في الوقت الذى كان الكيسوس يرشو قواد النبلاء للولاء له من دونهم ، وسقطت في أيدي هذه الفصيلة : نيقية (١٠٩٧) والرها ، وأنطاكية (١٠٩٨) والقدس (١٠٩٩) بعد حصار ٤٠ يوماً ، فذبحوا من سكانها ٧٠ ألفاً وجمعوا اليهود في كنيس وأضرموا فيه النار ، ثم بايعوا جودوفروا ملكاً عليها ورجع معظمهم إلى أوطانهم ، وفر بطريرك القدس البيزنطى إلى قبرص ، وأمن الملك الساحل بأسطول بيزا لقاء منحها حقوقاً في يافا ، فغضبت البندقية واستولى أسطولها على

حيفا بعد شهر من وفاة الملك^(٢٦) وخلفه أخوه بودوين الأول (١١٠٠ - ١١١٨) ثم ابن عمه بودوين الثاني (١١١٨ - ١١٣١) ثم بودوين الثالث ، فامتد فتح الساحل من قيصرية حتى طرابلس ، وشيدت القلاع والحصون ، وضربت الجزية على دمشق وبعض المدن السورية ، وأعيد إلى بيزنطية نصف أملاكها في آسيا الصغرى .

الحملة الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩) وانقض عماد الدين زنكى على الرها ، فانترعها وضواحيها من أيدي الصليبيين (١١٤٤) ، فاستغاثوا بأوروبا فأمدتهم بحملة عليها كوزراد ملك جرمانيا ولويس السابع ملك فرنسا ، واشتركا فيها لأن راهباً اسمه أرنولد ألف جماعة استولت على الفاتيكان وفر البابا منه (١١٤٦) ، وسار الفرنسيون وراء الجرمان حذراً منهم ، وعندما ردوا عن حصار دمشق عاد الملكان إلى بلديهما ، وخلف زنكى ابنه نور الدين فأسر جوسلين الثاني أمير الرها (١١٥١) ويوهند الثالث أمير أنطاكية (١١٦٤) وريمون الثالث أمير طرابلس ، ولم يوفق في فلسطين ؛ إذ سقطت عسقلان في يد بودوين الثالث ملك القدس (١١٥٣) وأدت . دمشق^(٢٧) ثمانية آلاف دينار مقاطعة جزية للصليبيين (١١٥٦) ودخلوا مصر (١١٦٨) ثم ردوا عنها .

وجاء صلاح الدين الأيوبي وله أمنيان : إحلال السنة محل الشيعة في مصر ، وإجلاء الفرنجة عن الشرق ، ففضى على الدولة الفاطمية في دمشق (١١٧١) ، وأخضع سوريا (١١٧٤) ، وعقد هدنة مع ملك القدس إلا أن رينودى شاتيون - ويطلق المسلمون عليه أرناط أمير حصن الكرك لم يرعها - فثار غضب صلاح الدين وانقض على الصليبية في طبرية وحطين وفتح القدس صلحاً (١١٨٧) ، وهدم أماكن العبادة الصليبية فيها ، وخير أرناط - وكان يحسن العربية - بين الإسلام والقتل ، فلما أباه ضرب عنقه ومن معه على مشهد من الناس^(٢٨) ، ووزع على أراملهم وبياتهم من ماله الخاص ، وعفا عن بوزنيان ملك القدس ، وأعتق كثيراً من الأسرى . ثم تابع زحفه على مدن الصليبية وقلاعها وحصونها ، فلم يسلم لهم منها سوى أنطاكية وطرابلس وصور وبعض الدساكر الساحلية (١١٨٩) .

الحملة الثالثة (١١٨٩ - ١١٩٢) وأفرغ سقوط القدس أوروبا ، فجهزت حملة تزعمها فردريك باربروس إمبراطور جرمانيا ، ورتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب أوجست

(٢٦) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج١ ، ص ١٠١ .

(٢٧) ابن القلانسي ، ص ٣٣٦ .

(٢٨) أبو شامة ، كتاب الروضتين ج٢ ، ص ٧٥ .

ملك فرنسا - وقد أصر ملك فرنسا على أن يصحبه ملك إنجلترا لثلاثين يوماً على أمل أنه في غيابه - والتقى ريتشارد وفيليب عند عكا ، فاستسلمت حاميتها بعد حصار طويل (١١٩١) على ٢٠٠ ألف قطعة من الذهب ، و ١٦٠٠ أسير ، ورد عود الصليب الذي كان صلاح الدين قد احتفظ به ، عندئذ رجع فيليب وظل ريتشارد ، ولما أبطأ صلاح الدين عن القدية شهراً أمر ريتشارد بالحامية وعددها ٢٧٠٠ قتل ، وامتلكت يافا وهم بالقدس ، فانقسم عليه الفرنسيون خوفاً منه على عرشها ، فاقترح زواج أخته من الملك العادل أخى صلاح الدين وإهدائها للقدس ، وأنتم على الملك الكامل بن الملك العادل برتبة القروسية للثلاثين (١١٩٢) ثم عقد صلح الرملة على أن يكون الساحل للثلاثين والداخل للمسلمين وألا يتعرض أحد للحجاج في القدس (١١٩٢) .

الحملة الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤) أعدها بودوين التاسع كونت الفلاندر ، فصرفه أهل البندقية - وكانوا قد عقدوا حلفاً سرياً مع مصر - عنها إلى فتح زارا ؛ حتى إذا استغاث إمبراطور القسطنطينية ببودوين على أخيه الذي خلعه عن العرش واحتل البنادقة القسطنطينية ، وتقاسموا ثروتها وكنوز كنائسها (١٢٠٣) - إنصرف إليها .

وتمت حملة فتيان (١٢١١ - ١٢١٩) جرمانية وفرنسية لم تبلغ الشرق ، قضى معظم الأولى من الجوع وفنك الذئب وسرقة اللصوص قبل بلوغهم جنوى . وألقت السفن المقلدة للأخرى مراساتها ، بأمر فردريك الثاني ، في ثغور تونس ومصر ، حيث بيع فتيانها في أسواق الرقيق .

الحملة الخامسة (١٢١٩ - ١٢٢١) بقيادة جان دي بريان ملك القدس وأندريا الثاني ملك المجر (هنغاريا) ، فوجهتها جمهوريات إيطاليا وجهة مصر تيسيراً لتجارها في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وبعد فتح دمياط - اقترح عليها السلطان الكامل الجلاء عن مصر لقاء إرجاع المملكة الصليبية إلى معظم ما كانت عليه قبل أبيه صلاح الدين ، فرفضت وراحت تتوغل في أراضي الدلتا حتى أجلاها عنها الفيضان ، وحث فردريك الثاني يمينه في الانضمام إليها ، فعقدت معاهدة مع الملك الكامل ، ورجعت من حيث أتت .

الحملة السادسة (١٢٢٨ - ١٢٢٩) تولى أمرها فردريك الثاني ، وكان قد نذر على نفسه حملة صليبية (١٢١٥) ثم شغل عنها فحرم لتسويفه . ولما لم يلق معونة من فرنجية فلسطين عقد مع السلطان الكامل معاهدة (١٢٢٩) نزل بها السلطان للملك عن : صيدا ، وعكا ، ويافا والناصرية ، وبيت لحم ، والقدس ماعدا الفضاء المحيط بقبة الصخرة . واطلاق جميع

الأسرى من الطرفين لقاء احترام ممتلكات السلطان في سوريا ومساعدته على أعدائه وأكثرهم من الأيوبيين^(٢٩) ومنعه الإمداد الأوربي عن الإمارات الصليبية ، وإطلاعه على كل ما يصل إليه علمه من نشاط صليبي في أوروبا ، فلم يرض عن تلك المعاهدة المذلومة ولا الصليبيون ، وحرم البابا المدينة المقدسة حرماناً شاملاً ما أقام فردريك فيها .

وخلف العادل أباه الكامل (١٢٣٨) وثار أخوه الصالح به (١٢٤٠) وأخرجهم من مصر ، وعقد الصليبيون حلفاً مع أمير دمشق المسلم على الصالح فاستنجد أتراك خوارزم ، فاستولوا على القدس ونهبوها وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها (١٢٤٤) .

الحملة السابعة (١٢٤٨ - ١٢٥٤) قادها لويس التاسع ملك فرنسا - فتأهب هنري الثالث ملك إنجلترا لغزو فرنسا - فاستولى على دمياط. (١٢٤٨) ، وغلبه المالك في وقعة المنصورة (١٢٥٠) وأسره ومعظم نبلائه تورنشا بن السلطان الصالح أيوب ، ثم أطلق سراحهم لقاء قدية وتسليم دمياط^(٣٠) فقصدوا عكا وأقاموا فيها أربع سنين رحلوا بعدها إلى أوروبا ؛ وخاف السلطان الظاهر بيبرس المغول فحالف إمبراطور بيزنطية ميخائيل بليولوجس وبعض أمراء صقلية وإسبانيا ، واجتاز الفرات على ظهور الخيل إلى المغول وهزمهم في بلادهم . ثم أحيا الخلافة العباسية باستدعائه أبا القاسم العباسي ومبايعته في القاهرة (١٢٦١) وخرّب كنيسة الناصرة (١٢٦٣) وسقطت في يده قيصرية (١٢٦٥) وصالحته صفد على أمان ألفي فارس فيها (١٢٦٦) فجمعهم وقتلهم عن آخرهم . ويافا (١٢٦٧) وأنطاكية (١٢٦٨) فقتل من حاميتها ١٦ ألفاً وسبى ١٠٠ ألف بيع بعضهم في أسواق مصر ، وأحرق قلعتها وكنيسها وغنم أموالاً طائلة منها^(٣١) واستسلم له حصن الأكراد (١٢٧١) .

الحملة الثامنة (١٢٦٧ - ١٢٧٠) جردها لويس التاسع ملك فرنسا ، ولكنه قضى نجبه أمام تونس (١٢٧٠) على حين كانت الإمارات الصليبية ومدنها تسقط الواحدة تلو الأخرى في أيدي سلاطين مصر : فرد قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠) على غزو المغول سوريا واستعجالهم البابا وبعض ملوك أوروبا في حملة صليبية تقضي على سلطنة مصر بعقد معاهدات مع بعض أمراء إسبانيا ، وأميرة صور ، واتفاق تجارى مع جنوى ، ثم هزم المغول وأخضع قلعة المرقب (١٢٨٥) وطرابلس فهداها ودك قلعتها (١٢٨٩) ، وفتح ابنه الملقب بالأشرف (١٢٩٠ -

(٢٩) أبو الفداء ، ج٣ ، ص ١٤٨ .

(٣٠)

(٣١) المقرئ ، ج١ ، ص ٢ - ٢٩ .

(١٢٩٢) عكا ، وقتل حاميتها عن آخرها وأحرقها (١٢٩١) ، فأدى سقوطها إلى جلاء الصليبيين عما كان في أيديهم : صور ، وصيدا ، وبيروت . وطرطوس . وهكذا ردت أوروبا على غزوات المسلمين بثماني حملات ، وقيل عشر بإضافة حملة سيجفارد جور سلفار ملك النرويج (١١٠٧ - ١١١١) وحملة يوحنا هونابادى (١٤٤٣) وما تفرع عن تلك الحملات ؛ إذ انتزع فرسان القديس يوحنا الذين تأسسوا في القدس (١٠٧٠) ونجوا من مذبحه عكا بفرارهم إلى قبرص (١٢٩١) رودس من المسلمين (١٣١٠) ومالطة وتسموا باسمها (١٣١٠ - ١٥٢٢) وغزوا الإسكندرية ونهبوها (١٣٦٥) وطرابلس بلبنان والمهدية من أعمال تونس (١٣٩٦) .

وقد كان فيليب ليليل ملك فرنسا قد صادر أموال أولئك الفرسان وعذبهم ، وألغى البابا نظام فرسان المعبد (١٣١٢) ، وصادر إدوارد الثاني أملاكهم في إنجلترا . وقد حالف بعض الحملات الصليبية النصر حيناً وباء بعضها بالفشل ، ثم انتهت جميعاً بهزيمة الفرنجة وعودتهم إلى أوروبا عودة المسلمين من معظمها إلى الشرق .

١١ - الإمبراطورية المغولية :

وفما كانت الحروب الصليبية تشرف على نهايتها ظهر جنكيزخان (١١٦٢ - ١٢٢٧) ، فوحد قبائل المغول (١٢٠٣) - ويطلق العرب عليهم التتر ، وقد اشتقوا كتاباتهم من الأبجدية السريانية فعل قبائل المانشو - ووضع أساس أكبر إمبراطورية زعزع قوادها الممالك ما بين الصين وبين الإدرياتيكي ، وقضوا على غيرها : ففتح المغول بخارى (١٢١٩) وسمرقند (١٢٢٠) ودمروا خراسان ونيسابور ، واستولوا على هرات ، وهزموا الروس عند نهر كلكا ، وجلسوا فوق أسراهم من القواد الأشراف ؛ ليطعموا ولحمة النصر ، فأتوا تحمهم اختناقاً (١٢٢٤) ، ثم ارتدوا عن روسيا لفتح الصين ، ولما رجعوا إليها (١٢٣٧) بقيادة باتوخان حفيد جنكيز خان ذكروا المدن وأحرقوا موسكو وحاصروا فلادمير ، وفتحوا كييف (١٢٤٠) ، وانطلقوا ينهبون ويدمرون ويقتلون . ثم سيطرت حامية إحدى قبائلهم على القسم الأكبر من روسيا مدى ٢٤٠ عاماً ، فوضعت الجزية على أشرافها وجندت من أهلها وصالحت الكنيسة الروسية طمعاً في تأييدها ، على حياة رجالها وممتلكاتها وإعفاثهم وإياها من الضرائب . وأغار المغول على بولونيا والمجر وألمانيا (١٢٣٧) ، وهزموا البولونيين والألمان (١٢٤٠) وقطعوا الدانوب إلى بلغاريا وخربوا بلاد ما بين النهرين وأذربيجان وأرمينيا وجورجيا

(١٢٤٥ - ١٢٥٣) ، وعبر هولاءكو نهر جيحون واكسح فارس وبغداد والشام (١٢٥٨) ، ثم جاء تيمور لثك (١٣٣٦ - ١٤٠٥) فاعتق الإسلام ، ورد نسه إلى جنكيزخان ، واجتاح فارس وبغداد (١٣٩٣) وموسكو (١٣٩٥) ، وكان قد أنفذ تقتمش لغزوها (١٣٨٠-٨١) والهند (١٣٩٨) وسوريا (١٤٠١) وقهر العثمانيين (١٤٠٢) وتوفى فى زحفه على الصين (١٤٠٥) .

وعاد سلاطين دلى بعد تيمور لثك إلى عروشهم قرناً آخر أزالهم بعده عنها الفاتح بابور (١٥٢٥) ، وأسس فيها أسرة المغول التركية .

وتنكب ابنه هيون خطاه ، فألجأه الأفغان إلى فارس حيث أعد جيشاً استعداد به عرش أبيه . وكانت زوجته قد أنجبت له فى أثناء نفيه ولداً أسماه محمداً . وأطلقت عليه الهند لقب أكبر ، فلما تسلم مقاليد الحكم (١٥٥٦) وسع رقعة ملكه وجمع فى شخصه السلطات ، وقام بكثير من ضروب الإصلاح واقتنى مكتبة ضمت ٢٤ ألف مخطوط - وكان يزدرى الكتب المطبوعة التى قدمها له اليسوعيون الذين عهد إليهم بترية أحد أبنائه - وأشرف بنفسه على بناء الحصن فى أجرا ، ثم كون من الديانات ديانة جديدة ونادى بنفسه رئيساً عليها . فثار به المسلمون وشق ابنه جهان كير عصا الطاعة عليه ، ولما توفى لم يصل عليه رجل من أبة عقيدة أو مذهب !

وانغمس جهان كير فى الحمر والمجون والقسوة فأفقر الهند ، واستتبأ موته ابنه جهان فحاول اعتلاء العرش (١٦٢٢) ففشل وعندما بلغه نعيه أسرع من الدكن حيث كان مخفياً ، وأعلن نفسه إمبراطوراً ولقب بشاه جهان وقتل إخوته جميعاً وأسرف فى الضرائب والاضطهاد إسرافاً أجاج الهند . وفات جهان قتل أبنائه ، فكذب لأحدهم وهو أورنجزيب أن يثور به (١٦٥٧) ويزحف عليه من الدكن ويلقيه فى حصن أجرا . وكان أورنجزيب مسلماً ورعاً يحفظ القرآن ويقم الصلاة ويصوم رمضان ويجاهد الوثنيين .

ولم يمض على موته سبعة عشر عاماً حتى تمزقت إمبراطوريته شر تمزق ، فما كسبه أكبر بحكته أضاعه جهان كير بقسوته ، وشاه جهان بإسرافه ، وأرنجيزب بتعصبه (٣٢) .

(٣٢) قصة الحضارة . الجزء الثالث ، الهند وجيرانها ص ١٢٥ وما يليها ، تأليف ول ديورانت ، ترجمة الدكتور زكى

نجيب محمود . منشورات الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية (القاهرة ١٩٥٠) .

١٢ - السلطنة العثمانية :

وبعد أن ألقى الستار على الحروب الصليبية أسس أبو عثمان التركي السلطنة العثمانية (١٣٠٠) على أنقاض الدولة السلجوقية وحساب الولايات البيزنطية ، ثم طفق خلفاؤه يوسعون رقعتها : فاستولى مراد على بلغاريا وصربيا (١٣٨٥ - ١٣٨٦) وانهزم في بلوشنك (١٣٨٧) ، وقتل في وقعة قوصوة (١٣٨٩) وخلفه ابنه بايزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٣) ، وتفاقم به خطر العثمانيين ، فألفت أوروبا جيشاً لقتالهم من فرسان الجر وبولونيا وفرنسا وألمانيا بزعامة سجسمند ملك الجر فقهرهم بايزيد في وقعة نيقوبوليس (١٣٩٦) ومد ملكه من الفرات إلى الدانوب . وكسره تيمور لnk في وقعة أنقرة وأسره وأحد أبنائه (١٤٠٢) وتنازع أبناء بايزيد العرش بعده فعاد السلاجقة إلى إماراتهم ، واستقل الصرب والبلغار والأفلاق حتى استرد محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١) ما كان للعثمانيين قبل وقعة أنقرة . وانتصر على أسطول البندقية في وقعة غاليولي وحالف القسطنطينية وإمارات النصارى .

وفي عهد خلفه محمد الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١) سقطت القسطنطينية فأعمل جنوده فيها القتل والنهب والاسترقاق ، وحولوا كنيسها أياصوفيا إلى جامع (١٤٥٣) ثم أمن النصارى على دينهم وأملاكهم ، واتخذ القسطنطينية عاصمة ، فاقبس هو ومن جاء بعده من السلاطين الكثير من النظم البيزنطية حتى قيل : ما السلطان إلا إمبراطور مسلم . وبلغ كثيرون من الجراكسة واليونان والإيطاليين والألبانيين والسلاف والأرمن واللبنانيين أعلى مراكز الدولة ومنها الصدارة العظمى .

كما خلف العثمانيون الخلافة الإسلامية وأخذوا عنها الإسلام والأبجدية - وكانت حروفهم سريانية - وألوف المصطلحات الدينية والشرعية والعلمية والأدبية . وهزم بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) أخاه جم فاستسلم إلى فرسان القديس يوحنا في رودس (١٤٨٢) وأدى لهم السلطان ٤٥ ألف دوقه سنوياً لثلاثين سنة على المطالبة بالعرش أو يتخذوه عوناً في حرب صليبية على الأتراك . فنقلوه إلى فرنسا . ثم إلى الفاتيكان (١٤٨٩) فأسرع السلطان بإرسال مرتب ثلاث سنوات إلى البابا ، ثم رأس حرية أكد له أنه هو الذي نفذ في جنب المسيح (١٤٩٢) وقد استعان البابا ألكسندر ببايزيد الثاني على فرنسا (١٤٩٤) إلى أن أرغمه الانكشارية - وأصلهم من أسرى الدول الأوروبية أو الرقيق أو الجزية مكثوا للسلطنة طوال

ثلاثة قرون - على التخلّي عن العرش .

وخلفه ابنه سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) فاستولى على تبريز وجزء من أرمينيا (١٥١٥) وسوريا (١٥١٦) ومصر (١٥١٧) وأجلى خير الدين بروسا وأخوه ، وكانا عثمانيين من أصل يوناني - الإسبان عن الجزائر ووهباها للسلطان (١٥١٨) وفي زمن سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦) أخضعت أكثر بلاد المجر ، وفتحت رودس آخر المعاقل الأوربية في شرق البحر المتوسط (١٥٢٢) واعتقل بعض الجواسيس العثمانيين في رومة فبلغ الملح بين سكانها مبلغاً ذكرهم بهنيئيل بعد انتصاره في كاناي (٢١٦ ق . م) ، ولكن نهب رومة لم يأت على يد العثمانيين بل بإيعاز من ملك إسبانيا فغزاها زعيم تيرولى بجيش من المرتزقة الألمان والجنود الإسبان (١٥٢٧) ، فانطلقوا يقتلون أهلها في البيوت والمستشفيات والملاجئ والمعابد ، ويهتكون أعراض المحصنات ، وينهبون الكنائس والأديار ، ويحولون بعضها إلى اسطبلات ، ويجردون الفاتيكان من كنوزه ، ويركبون من وقع في أيديهم من الأساقفة دواب قدرة ووجههم نحو ذيولها وعليهم شارات مناصبهم . واحتل بييرى رئيس ، وهو أمير بحر عثماني من أصل أوربي عدن (١٥٤٧) ومسقط (١٥٥١) ، وأخضع سنان باشا الألباني طرابلس الغرب (١٥٥١) واليمن (١٥٦٨) وتونس (١٥٧٤) ، فامتدت سلطة العثمانيين من الدانوب إلى دجلة ومن القرم حتى شلال النيل الأول . ولما حاصروا فيينا (١٦٨٣) للتدخل في سياسة أوروبا جاءت بداية نهايتهم : فخسروا المجر (١٦٨٦) ، واستولى النمسيون على بلغراد (١٦٨٨) واستعادها العثمانيون (١٦٩٠) وانتصروا على النمسا وروسيا (١٧٣٥ - ١٧٣٩) ، ثم ضعفوا فانسلخت الجزائر عنهم (١٨٣٠) وتونس (١٨٨١) ومراكش (١٩٠١) إلا أن سلطنتهم كانت من أطول الدول الإسلامية عمراً ارتقى عرشها ستة وثلاثون سلطاناً من صلب عثمان (١٣٠٠ - ١٩٢٢) .

١٣ - طرق التجارة :

ومرة أخرى لم يسدل الستار ، إنما رفعت الاكتشافات بحيث كاد يسفر عن العالم قاطبة في سلع تنقلها البواخر وتفرضها المدافع :

(١) في الشرق الأدنى :

لقد كان للحملات الصليبية شأن كبير في استئناف التجارة الواسعة بين الشرق والغرب ،

وفتح الأسواق الدولية لها ، وقيام المصارف بتمويلها ، وتنظيم الحكومات قوانينها تنظيمًا دقيقاً . ولعل أولى المفردات العربية في التجارة الأوربية قبل القرن العاشر الميلادي التعريف والمخزن إلخ . وأقدم نقود الفرنجة الذهبية تلك التي ضربها البنادقة في القدس وعليها كتابة عربية ، وأول قنصل جنوى في عكا (١١٨٠) وقد بعث صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة بكتاب (١١٨٣) يبرر فيه تشجيع هذه التجارة بقوله : ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنوية . . . وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده . وكلهم قررت معهم المواصلة (٣٣) . وعقد صلاح الدين مع البنادقة والجنويين اتفاقات لتوريد السفن والخشب والسلاح والذخيرة - ولطالما سخط البابا على هذه التجارة وحرّمها فلم يفلح - ولما عطلت غزوات المغول الطرق البرية بين أوروبا وآسيا في القرن الثالث عشر - تحولت تجارة الهند والصين والموصل والخليج العربي وشمال أفريقيا إلى ثغور مصر ولبنان وسوريا وضمت إلى حاصلاتها ، فامتلأت تلك الثغور بالأرز والسكر والتمر والتوابل والأفاويه والأبزار ، وبالأحجار الكريمة والعاج والطيوب والعقاقير ، وبسبيج الحرير والكتان والقطن الموصلى والبغدادى والدمشقى والأطلسى ، وبالسجاجيد والطنافس وآنية الخزف والزجاج والأصباغ وأدوات الترف . وكان تجار قطلونية وجنوى والبندقية ومرسيليا ورغوصة (٣٤) وبرشلونة - وعقد الحفصيون في مراكش (١٢٠٨ - ١٣٠٩) اتفاقات تجارية مع برشلونة ، ومرسيليا ، وجنوى ، وبيزة والبندقية ، وصقلية ، مما يبرر دفع الجزية لصقلية ، ثم لأراغون ، ثم استأنفت علاقاتها التجارية بأوروبا في أوائل القرن السابع عشر فشملت بريطانيا وهولندا وغيرهما يفدون في مواسم معينة بمتاجرهم فيعرضونها في مستودعاتهم على تلك الثغور ويتعاونون سلعاها .

وحذا الممالك حذو صلاح الدين ففقدوا الاتفاقات وزادوا عليه احتكار بعض السلع وفرض المكوس على كل ما يمر بمصر لقاء منح البنادقة والجنويين امتيازات ، فقامت الحرب بينها عليها (١٢٩٨) ، ولما هزمت البندقية جنوى وجعلتها تقتصر على تجارة البندقية - أنشأت هي في الإسكندرية فندقين وكنيسة وحمامات حصر تجارها نشاطهم فيها ، وكانوا يفتلون على

(٣٣) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، في حوادث سنة ٧٥٠ .

(٣٤) وهي مرفأ على الأدرىاتيكي حاصره العرب في القرن التاسع وارتدوا عنه ، ثم خالفوا أهله قامت تجاراتهم إلى مصر ولبنان وسوريا والبحر الأسود وشمال أفريقيا .

أنفسهم وقت صلاة الجمعة وفي أثناء الفتنة وكل مساء ، ويسلم المفتاح إلى قنصلهم فيعيده إليهم صباح اليوم التالي .

وقد قدرت صادرات البندقية إلى الشرق الأوسط بعشرة ملايين دوقية في السنة ، وكان لمصرف تشيحي فروع في القسطنطينية والإسكندرية والقاهرة ، ومائة سفينة ترفع رايته ، وخمسة وعشرون ألف عامل مأجور عنده . واستولى البنادقة على رافنا (١٤٤١) وتكلم تجارهم العربية ، ثم أضافوا إليها التركية بعد سقوط القسطنطينية (١٤٥٣) ، وأفادوا من علماء الشرق الفارين من العثمانيين إفادتهم من علماء الغرب في العلم والفن ، وبدعوا صناعة الخزف (١٤٧٠) وليوا دعوة السلطان محمد الثاني ، فبعثوا إليه الرسام جنتيلي فزين حجرات قصره في القسطنطينية (١٤٧٤) ، ونزلت ملكة قبرص عنها لحاكم من قبل البندقية (١٤٨٩) وعرض دوقها على المالك المساهمة لإعادة القناة القديمة (١٥٠٤) ، ولكن ضم العثمانيين مصر إلى سلطنتهم قضى على المشروع . ولما عقد الفرنسيون معاهدة الامتيازات مع سليمان القانوني (١٥٣٥) أنشئوا تجارة رسمية في الشرق الأدنى وأفاموا اتصالاً في الإسكندرية ثم نقلوه إلى القاهرة (١٦١١) ، ثم رجع إلى الإسكندرية فأراً (١٧٧٧) وأسس الإنجليز الشركة التركية (١٥٨١) ، وبعثوا أول سفير في بلاط السلطان ، وعينت الشركة قنصلاً لها في القاهرة (١٥٨٣) ونافستها فرنسا ، فحملتها على استدعائه (١٧٥٦) واتفق الفرنسيون والبنادقة على الإنجليز ، ثم ضمهم إليها في مزاحمة الهولنديين واستطاعت شركة الهند أن تبيع الصادرات الشرقية إلى أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح بنحو نصف أثمانها .

وأول من نزل طرابلس بلبنان البنادقة وانتقل إليها قنصلهم من دمشق (١٥٤٥) ، ثم أقبل عليها الفرنسيون فاحتكروا منها تجارة الحرير والسجاد والقطن .

ولما اتخذ فخر الدين الثاني (١٥٩٠ - ١٦٣٥) صيدا عاصمة (١٥٩٣) - ثم مدت إمارته من طرابلس إلى الناصرة ، واعترف به الباب العالي سيداً على بلاد العرب من حلب حتى حدود مصر (١٦٢٤) -- أصبحت أكبر ميناء تجارى في شرق البحر الأبيض المتوسط واستورد الفلورنسيون - وقد عقد فخر الدين معاهدة مع دوقهم (١٦٠٨) وفر إليهم من الباب العالي (١٦١٣ - ١٦١٨) واستقدم من عندهم المهندسين والخبراء الزراعيين - الحرير والقطن والرماد والقمح .

ثم خلفهم الفرنسيون ، فقدرت تجارتهم مع الشرق الأدنى بأربعة عشر مليون جنيه (١٦٣٥) منها ثمن ٧٠٠ بالة حرير من صيدا وحدها ، وكان يبيعها منه في السنة بمبلغ

٤٠٠,٠٠٠ فلس^(٣٥) هذا خلا ماكانت تستبضعه منه من النييد والأخشاب وغيرها فأربت أرباحها من سائر سلعه على مليون ليرة في العام^(٣٦) ، مما اقتضاها إقامة قنصلية ، فانتدبت لها أبا نوفل الخازن نائب قنصل في بيروت (١٦٥٥) ثم قنصلاً (١٦٦٢) واستمر هذا المنصب في أسرة الخازن نحو مائة سنة ، ثم خلفها الشيخ غندور سعد الحورى (١٧٨٧) وقد خصت أبناء الطوائف المسيحية الشرقية باثنتي عشرة عشرة منحة ليتلقوا العلم في كوليچ لوى ليجران (١٧٠٠) .

وأثرت بعض المدن الأوربية والشرق الأدنى وشمال أفريقيا بفضل هذه التجارة العالية ، وجمع المالك من مواردها أموالاً طائلة بنوا بها أكثر المساجد والمدارس والمستشفيات .

(ب) في الهند :

منذ أن عاد ماركو بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٣) مع عمه وأبيه من الصين (١٢٩٥) بثروة طائلة من الأحجار الكريمة فتحت أوروبا عيونها على ثراء الشرق الأقصى . وعلى أثر النهضة العلمية اكتشف برتلميو دياز رأس الرجاء الصالح وأبحر منه إلى الهند (١٤٨٦) وقصد كولبس الإيطالى - وكان يعمل لحساب إسبانيا - الهند (١٤٩٢) ، وأرسل ملك البرتغال فاسكو دى جاما فى أربع سفن فدار بجزراً حول رأس الرجاء الصالح . وعندما بلغ مدغشقر تعرف بأحمد بن ماجد - مصنف كتاب الفوائد فى علم البحر والقواعد - فهدها إلى مجاهل المحيط الهندى^(٣٧) ومارست سفنه فى مياه كلكتا (١٤٩٨) حتى وقعت الكارثة الكبرى :

لقد أحسن ملك مليبار وفادته وحمله رسالة إلى ملك البرتغال جاء فيها :

زار مملكى فاسكو دى جاما ، وهو شريف من كرام أسرتكم ، فسرتت بزيارته سروراً عظيماً وإن فى مملكى لوفرة من القرفة والقرنفل والفلفل والمرجان والنسيج القرمزى . فكان جواب ملك البرتغال مطالبة الهند بمستعمرة لتجارته ونشر دينه ، عن طريق أسطول عقد لواءه لفاسكو دى جاما (١٤٩٩) فنال الامتيازات ، وثان عقد لكبرال فاكشف البرازيل فى طريقه (١٥٠٠) وثبت أقدام البرتغاليين فى كلكتا ، وثالث عقد لدى المايذا (١٥٠٥) فانبثوا واستولوا على جوا (١٥١٠) - ثم نالت فرنسا مثل امتيازاتهم (١٥٣٥)

Ristelhuebert, Traditions françaises au Liban, p. 270.

(٣٥)

(٣٦) ماسون ، تاريخ التجارة الفرنسية فى الشرق .

J. de Barros, Da Asia Décade I, livre IV, ch. VI (1778).

(٣٧)

وإنجلترا (١٥٨٠) وهولندا (١٦١٢) ثم غيرها من البلدان الأوربية - وعظمت تجارتهم من الهند فكانت الرحلة التي تتكلف ٤٠٠٠ جنيه بما فيها ثمن السفينة تباع حمولتها وحدها بمبلغ ١٥٠٠٠ جنيه .

ولكن البرتغاليين لم يقنعوا بذلك التراء العريض ففتحوا مالقة وجزيرة هرمز على مدخل الخليج العربي ، وبسطوا نفوذهم على عدن ومصوع وقرآن ، وجابوا البحر الأحمر ، واستولوا على سفن مصر والبندقية . واستغاث ملك مليبار - وقد اشهر في مصر وأفريقيا ولبنان وجزيرة العرب باسم التاجر - وتجار المسلمين بائنين من ملوك الهند ومصر ، فأندر السلطان الغوري البابا بتخريب الأماكن النصرانية المقدسة إن لم يوقف البرتغاليين عند حدهم ، ثم جهز حملة بحرية بمعاونة البنادقة فانصرت على البرتغاليين ، ثم انهزمت أمامهم في وقعة قرب ديو (١٥٠٩) فسيطروا على المحيط الهندي ، ومن بعد على بحر الصين ، حوالي قرن ونصف القرن يكسبون خلالها في كل سنة من الهند مليوناً ونصف مليون ديوك ذهباً يبعثون بثلاثها إلى لشبونة فأثرت ثراء فاحشاً ، وازدهرت بلدان شواطئ المحيط الأطلسي والهندي ، في حين ركبت ثغور البحرين الأبيض المتوسط والأحمر . وكان لركودها أسوأ الأثر في حياة الشرق الأدنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وأحسن أثر في النهضة الأوربية ، حتى آثرها بعض المؤرخين على المخطوطات الإغريقية التي حملها البيزنطيون من القسطنطينية إلى أوروبا الغربية .

ومهد الانقلاب التجاري في أيام كولمبس إلى انقلاب صناعي يسر لأوروبا إنتاج سلع أنقن وأرخص وأوفر ، ولما عجزت عن تصريفها فيها جددت في البحث عن أسواق لها في العالم ، وجابت بعثاتها الشرق لاستخراج كنوزه .

وهكذا تأسست شركة الهند الشرقية في لندن (١٥٩٥) وشركة الهند الشرقية في هولندا (١٦٠٢) وتعاونتا فيما بينها ، فظهرت أول سفينة إنجليزية في البصرة (١٦٣٥) وحل الهولنديون - وقد تحرروا من إسبانيا - محل البرتغاليين في بمباي (١٦٦٥) .

وفي تلك السنة تأسست شركة الملاحة الشرقية في باريس (١٦٦٥) وبسط الفرنسيون حمايتهم على الهند (١٧٤٠) ثم لحق الإنجليز بهم إليها وأجلوهم بعد معارك عنها فأثرت شركة الهند الشرقية منها ؛ إذ صارت تباع ما يكلفها مليوني ريال بعشرة ملايين حتى بلغ ثمن السهم فيها ٣٢ ألف ريال ، ثم أقامت مستعمرة بريطانية في الهند (١٦٨٦) ، وأنشأت مراكز تجارية في مدراس وكلكتا وبمباي ، وحصنتها ووفرت لها جنداً خاضت بهم المعارك ورشت وارتشت حتى أفقرت الهنود ، فثاروا (١٨٥٧) ، وقعت إنجلترا ثورتهم ، وحلت محل شركة الهند

مستعمرة للتاج . ثم حاربت في الهند - وقد ضمت بورما إلى أملاك التاج (١٨٨٦) - مائة وإحدى عشرة حرباً حتى تم لها فتحها ، فنشرت ثقافتها بين الطبقة المتعلمة باستضافة مئات الطلاب في جامعتها خلا الآلاف الذين قصدوا جامعات أوروبا وأمريكا ، فعادوا يترجمون الفنون والآداب والعلوم الغربية إلى اللغات الهندية . ويحيون التراث الهندي بما فيه الإسلامى بمعاونة المستشرقين عن طريق إنشاء الجامعات والمكتبات والمتاحف والمطابع والمجلات والجمعيات ، فرتب وحقق وترجم وصنف فيه واستعاد تأثيره الأول .

لقد كان أثر الفكر الهندي في ثقافات الأمم الأخرى شديداً في عهود ضعفها أو انهيارها أو نهضتها : فقال أفلاطون بتناسخ الأرواح ، واستسلم زينون الصيداوى للقضاء والقدر ، ووردت الأفلاطونية الحديثة من مناهل الهند . ونقل إلى العربية الكثير من مصنفاتها حتى إذا سقطت رومة وعطلت غزوات المغول الطرق البرية بين أوروبا والهند تعثر تبادل الفكر بين الشرق والغرب خلال مئات الأعوام إلى قيام الاستشراق ، فاستعادت الهند تأثيرها في كبار فلاسفة الغرب . فتصور فخته مذهباً مثالياً على غرار مثال شانكارا ، وأوشك شوبنهاور أن يدخل في فلسفته مذاهب البوذية واليوياتشاد والفيدانتا ، وانتهى شلنج إلى القول بأن اليوياتشاد أنضج حكمة بلغها الإنسان ، والترم نبتشه مذهب التقمص حتى وفاته ، واعترف العالم بطاغور وغاندى وإقبال الذين مزجوا بين الثقافتين الشرقية والغربية .

(ج) في الحبشة :

وجمع الإمام أحمد بن إبراهيم أمير هرر الأمراء المسلمين حوله ، واستعان بالعمانيين المطللة مراكرهم على البحر الأحمر ، وعقد معاهدة مع البندقية ثم غزا الحبشة (١٥٢٩) ، وحاول إمبراطورها لبنادنجبل رده ، فهزم هزيمة منكرة ودخل الإمام أحمد مدينة أكسوم فامتعت عليه ، فأحرقها وحمل نفائس كنائسها وارسل بأسراها فبيعوا رقيقاً في الأسواق .

وفي مطلع عام ١٥٤٠ اجتاحت جيوش الإمام الحبشة كلها ، وقضى إمبراطورها الطريد نجبه ، فرأى خليفته الإمبراطور جلوديوم الاستعانة بالبرتغاليين فأمدوه بأربعائة وخمسين جندياً على رأسهم القائد كريستوفر دا جاما (١٥٤٢) ولئن هزموا في الوقعة الأولى وأسر قائدهم لقد أوقفوا الهزيمة بجيوش الإمام وشجعهم النصر على اختراق جيوشه وإصابته بجرح مميت . ولما عاد الإمبراطور إلى قصره (١٥٤٥) رأى مكافأة البرتغاليين على حسن صنعهم بتحويل الحبشة من المذهب الأرثوذكسى إلى المذهب الكاثوليكي . وكانت بعثة برتغالية قد وصلت الحبشة في أثناء

غيته برئاسة رودريجز ومعها راهبان يسوعيان يحملان رسالة من سلطان الهند لضم الحبشه إلى المذهب الكاثوليكي ، ففعل ثم ارتد عنه . ولما أرسل الأب إبراهيم جورجي - وكان مارونياً من حلب تعلم في رومة ، وانضم إلى الرهبانية اليسوعية ، وكلف بخدمة نصارى السريان في مليبار - إلى مصوع قتل عام ١٥٩٥ .

(٥) في الصين :

ويبلغ البرتغاليون بمدافع سفنهم كانتون (١٥١٧) ، فتلقبهم تلقى القرصان سجناً وتقتيلاً ، حتى إذا ساعدوا للصين على قراصنة آخرين كافتهم بأن منحهم حق استيطان مكاو وحكمها وتشيد مصانع كبيرة للأفيون عليها واستخدام الأهلين فيها ، فعاد أحدها عليهم بريح قدره ١,٥٦٠,٠٠٠ دولار في السنة .

وبعد أن فتح الإسبان جزائر الفلبين (١٥٧١) استقروا في جزيرة فرموزة ثم خلفهم الهولنديون . واستولوا على جاوة (١٥٩٥) - وكان المسلمون قد دخلوها من مالقة (١٤٧٩) وتوسعوا في نشر الإسلام فيها بإصهارهم إلى أمراء الثغور المجاورة ، وأقدم الآثار الإسلامية قبر فاطمة بنت ميمون (المتوفاة عام ١٠٨٣) - وأنشأ الهولنديون مدينة بتافيا (١٦١٩) وشركة الهند الشرقية الهولندية للتجارة . ثم أقبلت خمس سفن إنجليزية (١٦٣٧) على كانتون ، وأسكت بمدافعها المدافع التي قاومتها ، وأنزلت في المدينة بضائعها ، ولكنها أثارت العقبات في وجهها بإرسال الأفيون إلى الصين ، ولما أوفدت إلى الإمبراطور شين لونغ (١٧٣٧) - بعثة برئاسة اللورد مكارتنى لعقد معاهدة تجارية معه رد عليها بخطاب إلى الملك جورج الثالث جاء فيه : وخليق بك أيها الملك أن تحترم شعوري هذا ، وأن تكون في المستقبل أكثر إخلاصاً وولاء مما كنت في الماضي حتى يكون خضوعك الدائم للعرش من أسباب استمتاع بلادك بالسلام والرخاء في مستقبل الأيام !

وفي مطلع القرن الثامن عشر بدأ استيراد الأفيون من الهند إلى الصين فحرمته حكومتها مراراً وأمرت المستوردين الأجانب (١٨٣٨) في كانتون بتسليم ما في مخازنهم منه ، فلما أبوا حاصرت أحياءهم ، واستولت على عشرين ألف صندوق عنوة ، فانسحب البريطانيون إلى هونغ كونغ حيث أطلقوا مدافعهم على مدنها ، فصالحتهم الصين على التخلي عن هونغ كونغ وفتح خمسة ثغور للتجارة الأجنبية وامتيازات عديدة .

وظلّت عدة دول أخرى ، منها فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية - تطبيق تلك

الامتيازات على رعاياها وتجارها فأجيبت إلى طلبها ، ولما تمدت فيها وأبته الصين عليها فتح البريطانيون والفرنسيون كانتون وأملوا على الصين معاهدة شجعت دولاً كثيرة فاستولت روسيا على الأراضي إلى شمال نهر عامور وشرق نهر الأوسرى (١٨٦٠) ، واستقطعت فرنسا الهند الصينية (١٨٨٥) واغتصبت اليابان فرموزه (١٨٩٤) ، وحررت كوريا لتستولى عليها (١٩١٠) ، وفازت ألمانيا بشبه جزيرة شانتنغ (١٨٩٨) ، واحتلت الولايات المتحدة الأمريكية جزر الفلبين (١٨٩٨) .

وفي عام ١٩٠٠ قام الملاكمون الصينيون بذبح المسيحيين بمن فيهم الراهبات والأطفال ، فزحفت الجيوش المتحالفة على بكين لحماية رعاياها وأعملت في المدينة السلب والنهب والقتل ، وفرضت عليها غرامة حربية قدرها ٣٣٠ مليون دولار ، ثم رفعتها معظم الدول عنها لقاء تعليم الطلبة الصينيين في جامعاتها . ورجع طلبية الغرامة من إنجلترا والولايات المتحدة واليابان إلى الصين بالجديد من العلوم والآداب والفنون ، فأذاعوها فيها بفضل المعونة التي لقرها من الحكومات والمنظمات والأفراد لإنشاء الكليات - كهبة جون ، و ، وروكفلر الصغير وقدرها خمسة ملايين دولار لكلية الطب (١٩٣٢) - والمستشفيات والمعامل ، خلا المنح الدراسية العديدة لتلقى العلم في الغرب .

١٤ - العودة إلى الشرق الأدنى :

لما أجلت إنجلترا فرنسا عن الهند قررت فرنسا تجديد الطريق القديم المار بمصر لكي تفسد على غريمها تجارتها المارة برأس الرجاء الصالح ، فأخذ عمال فرنسا وتجارها في مصر يلحون على حكومتهم للاستيلاء على مصر ، إلا أنها قنعت منها بعقد معاهدات مع البكوات والماليك ضمننت لها تيسير نقل تجارتها عن طريق مصر ، وأدرك جورج بولدوين أحد أعضاء شركة الهند الشرقية الاتجاه السياسي لتلك المعاهدات ، فحمل حكومته على عقد مثلها مع البكوات والماليك .

وفي أواخر القرن الثامن عشر تطور الموقف السياسي تطوراً سريعاً وخطيراً : فقد قامت الثورة الفرنسية ، ونشبت الحرب بين إنجلترا وفرنسا الجمهورية (١٧٩٣) ، وكتب نابليون إلى تاليران (١٧٩٧) يقول : لن نلبث طويلاً حتى نشعر باضطرابنا إلى احتلال مصر لتحطيم إنجلترا . وكانت انتصارات نابليون على إيطاليا قد مكنت له في الأرض وأطمعته في الشرق موطن الفتوح العظيمة ، وزينت له إقامة دولة شرقية أكبر على ضفاف النيل ينعم

بجيرانها ، ويضرب منها إنجلترا الضربة القاصمة .

وهكذا بلغت حملة نابليون مصر (تموز - يوليو ١٧٩٨) وكان الإنجليز على علم بأغراضها ، فأسرعوا إلى تحطيم أسطولها في خليج أبي قير (آب - أغسطس ١٧٩٨) وحصار سواحل مصر الشمالية حصاراً قطع الاتصال بين مصر وفرنسا ، وتآلب العثمانيين عليها ، والإسهام في إخراجها حتى جلت عن مصر (أواخر عام ١٨٠١) ثم تعاقبت الأحداث وقد سجلها التاريخ الحديث .